الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾.

أما ثاني الآيات ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ التي تتحدث عن الشمس التي جعلها الله تعالى دليلاً على ظل النهار، فإنا نود أن ننظر إليها، وبالذات إلى القول ﴿ **لمستقر لها** ﴾ من زاوية الآية التالية لها التي نعتقد أنها قادرة على تحديد الزاوية التي نظرت منها الآية الكريمة. قال تعالى: ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾. فهذه الآية الكريمة لا تتحدث عن القمر إلا من حيث كونه آية دالة على قدرته تعالى. وبقدرته عز وجل تسير هذه الآية في المنازل المقدرة لها، دون أدنى إشارة إلى إرادة الله تعالى باضطراب خط سير القمر أو فساد نوره إنما اقتصر الحديث على انتفاع الناس من القمر كل شهر مدة سيره في خطه وصلاح نوره. لذلك ليس هناك ما يمنعنا من أن ننظر إلى الآية التي تتحدث عن الشمس من الزاوية التي حددتها الآية التي تتحدث عن القمر، فنذهب إلى أن الحديث عن الشمس يقتصر على كونها آية دالة على قدرته تعالى. وبهذه القدرة المطلقة تسير في خط سير مقدر لها لا تستطيع أن تتجاوزه. ومن هذه الزاوية ننظر إلى القول ﴿ **لمستقر لها** ﴾ وأنه كما ذهب إلى ذلك الزمخشري [1] مثلاً بمعنى «لحد لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة. شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع. فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه».

وفي هذه الحال يكون الحديث عن الشمس مقتصراً على دائرة كونها سائرة في خط سيرها، وكونها مصدراً للحرارة وكل نفع وضعه الله تعالى فيها. أما الحديث عن اختلال كل ذلك بإرادة العليم الخبير، فله مواضع أخرى.

---

(1) الكشاف ٢/٥٨٧.

ولفظ العزيز في الآية يوحي بقدرة القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. ويلاحظ أنه هو اللفظ الذي جاء في القسم الأول من السورة في قوله تعالى: ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ ومعروف أن هذين الوصفين يصبغان السورة بلونيهما. ولفظ العليم يوحي بأن كل شيء يجري في الكون تنتظمه حكمة الحكيم الخبير.

وهذه هي الآية الثالثة التي تتحدث عن القمر، قال تعالى: ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾.

«ولا بد في: قدرناه منازل: من تقدير مضاف، لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل. والمعنى: قدرنا مسيره منازل، وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستوٍ لا يتفاوت. يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر. وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة. فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس و(عاد كالعرجون القديم) وهو عود العذق، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة... والقديم: المحول. وإذا قدم دق وانحنى واصفر. فشبه به من ثلاثة أوجه» [1].

جاء في ظلال القرآن [2] «والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب: ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ وبخاصة ظل اللفظ «القديم» فالقمر في لياليه الأولى هلال وفي لياليه الأخيرة هلال. ولكنه في الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة. وفي الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم. ويكسوه شحوب وذبول: ذبول العرجون القديم!».

ولعله تبين أن الحديث عن القمر يقتصر على الفترة التي قدرها العليم

---

(١) الكشاف ٢/٥٨٨.

(٢) ٢٣/٢٥.

الخبير له من حيث كونه مصدراً للنور ووسيلة للحساب وشتى المنافع التي شاء الله تعالى أن يقدمها هذا الكوكب للخلائق. وليس هناك مساس مطلقاً لاضطراب سيره أو ذهاب نوره. فدل ذلك على أن النظرة للقمر اقتصرت على كونه آية يأخذ البشر من نفعها المستمر العبرة والدلالة على الخالق جل وعلا. ومن هذه الزاوية عينها نظرنا إلى الآية المتعلقة بالشمس كما مر من قبل.

وليس بخاف علم كل العرب بهذه المنازل التي ينزلها القمر خلال الشهر. وقد قوت السماء الصافية غالباً من اعتماد العرب في سيرهم ليلاً على الكواكب بقصد الاهتداء بها. هذا إلى أن البيئة التي عاش فيها العرب مغرية لهم بأن يسيروا جزءاً كبيراً من الليل، وهو ما يسمى بالسرى. وكل ذلك يعني أن هذه الآية تتحدث عما يعرف العرب تماماً، محاولة حملهم على التفكير في خالق هذا الكوكب المنير المسير له في الخط الواضح المعالم، المسخر له بأن يقدم الكثير من النفع والكثير. ثم إن التشبيه في الآية بسيط كل البساطة بارع كل البراعة، فالمشبه به منتزع من البيئة التي يعرف سكانها كل دقائق النخلة.

وهذه هي الآية الأخيرة، قال تعالى: ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون** ﴾. وهي آية توحي بأن القمر، وهو أقرب الكواكب إلى الأرض، سريع في حركته، وأن الشمس، وهي كوكب بعيد من الأرض جداً، لا يصح لها أن تدرك القمر فضلاً عن أن تسبقه. كما توحي الآية بأن الليل لا يصح له كذلك أن يسبق النهار، بل يجب عليه أن يخلفه، كما قال تعالى:[1] ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً** ﴾. كما تقرر الآية بعد ذلك أن كلاً من الشمس والقمر والليل والنهار، له فلكه الذي يسبح فيه. واستعارة السباحة لكل من هذه المخلوقات، يتمشى مع ما يعرف به كل من ارتفاع وحركة. وهما من سمات السباحة.

---

(١) سورة الفرقان، ٦٢.

ونحب أن نشير إلى مسألتين. الأولى هي أن الآية تجعل النهار متقدماً على الليل، أو هي بهذا توحي. وهذا يتمشى تماماً مع الإشارة السابقة إلى النهار والليل. وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ فنحن في حقيقة الأمر بصدد اتفاق تام في خفيات الأمور في هذه المجموعة من الآيات التي تتحدث عن آية الزمان.

والثانية هى أن الآية تستعمل جملة تدرك بشأن الشمس والقمر. بينما تستعمل لفظة «سابق» بشأن الليل والنهار. لقد أوحى القول «تدرك» بحركة القمر السريعة لقربه منا وبعد الشمس، كما أوحى بالبعد بين الشمس والقمر. كما أوحى القول «سابق» بحركة كل من الليل والنهار مع تلاصقهما. وإن الحركة بشأن الشمس والقمر مع بعدهما عن بعضهما، والحركة بشأن الليل والنهار مع تلاصقهما غاية في الأهمية. وقد أوحى القول «تدرك» و«سابق» بهذه الفروق الدقيقة، فسبحان القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وحيث إنَّ الآية التالية الدالة على قدرة الله تعالى تتصل بالماء وحمل الناس عليه، فإن الجملة التي ختمت بها آيات الزمان «يسبحون» خير مهيء للانتقال إلى نعمة الله تعالى وآيته المرتبطة بالماء وحمل الناس عليه. فنحن بصدد رباط قوي يربط المجموعتين من الآيات.

آية حمل الناس فوق الماء:

«إن في السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها، والفلك المشحون السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم. مناسبة في الشكل، ومناسبة في الحركة ومناسبة في تسخير هذا وذلك بأمر الله، وحفظه بقدرته في السماوات والأرض سواء[1]» قال تعالى: ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في**

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٣/٣٦.

الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون. وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾.

وأول ما يلاحظ هو أن هذه المجموعة تتكون من أربع آيات تماماً كما تتكون كل من مجموعتي آيتي المكان والزمان، حيث الحديث في كل كامل وشاف فسبحان القادر على كل شيء. وكأن هناك فترة زمنية واحدة يستغرقها الحديث عن كل الآيات الثلاث الدالة على قدرته عز وجل، أو أن هناك وقفات أثناء التلاوة متماثلة في كل المجموعات وهذا يعني أن التعاون تام بين الأثر الحسن في السمع والأثر الحسن في النفس.

والآية الأولى في المجموعة ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون** ﴾ تتحدث في إيجاز، كما هو واضح، عن إنجاء الله تعالى نوحاً عليه السلام من الغرق ومن آمن معه. وما آمن معه إلا قليل. وتم ذلك عن طريق إيحاء الله تعالى لنوح عليه السلام أن يصنع الفلك لأن الكافرين من قومه سيغرقون بالطوفان. وتستعمل الآية لفظ «ذرية» وهو لفظ يطلق على من سيولد من النسل. فكأن الآية الكريمة تستثير في هؤلاء المكذبين عاطفة الأبوة، فعليهم أن يشكروا لله تعالى الذي مَنَّ عليهم بإنقاذ ذريتهم ويكون ذلك بعبادته وحده لا شريك له. ويدخل في الذرية كل الذين ولدوا بعد ركوب السفينة إلى يوم القيامة. فكل الذين كانوا خارج السفينة آنذاك قد داهمهم الطوفان، وأغرقهم. استوى في ذلك من كان يجهل السباحة ومن كان ماهراً فيها.

وينبغي أن تكون هذه الآية الدالة على قدرته عز وجل ومنّه، حاملة لكل الذين يشملهم الحديث على التفكير في العديد من الأشياء. منها إنقاذ الله تعالى لهم عن طريق إنقاذ آبائهم. ولو لم تشأ إرادة الله تعالى أن يبقى أحد من العباد لما كان منه تعالى إيحاء لنوح عليه السلام بصنع السفينة. ولو افترضنا أن صنع السفن كان معروفاً للناس قبل الطوفان، فأين هي السفينة التي تتسع لكل هذه

المخلوقات وتستطيع أن تصارع تلك الأمواج التي هي كالجبال. هذا على افتراض أن هناك علماً سابقاً بالطوفان فيجب أن يتم صنع السفينة التي تلك صفتها والتي تساعدنا لفظة ﴿ مشحون ﴾ في الآية على تصورها، بإيحاء من الله وتعليم. ولو لم تشأ إرادة الله تعالى أن تطيع كل المخلوقات نوحاً عليه السلام حينما أمرها بركوب السفينة، فكيف كان سيتم إركابها؟ كيف يستساغ طلب نوح عليه السلام وكيف يطاع لولا إرادة الله تعالى. وإن العصيان كان يعني استئصال شأفة من لم يركب السفينة.

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن تستمر الحياة بعد الطوفان كما كانت قبله فتهيأت الأسباب لكل ذلك. وعلى الرغم من الأزواج العديدة التي لا يأتي عليها الحصر التي ركبت السفينة، فإن إرادة الله تعالى التي قضت باستمرار بقاء الأنواع شاءت بأن تكون كل الأزواج بلا استثناء صالحة للإنجاب! فسبحان القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد جاء بشأن نوح عليه السلام وقومه قوله تعالى في سورة هود [1] ﴿**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون. ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم. حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ألا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل. وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم. وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعي**

(١) الآيات، ٣٦ - ٤٤.

ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾.

والمعروف أن نوحاً عليه السلام مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً [1] ومع ذلك لم يؤمن له إلا قليل، فأهلك الله الكافرين وأنجى المؤمنين. وكل البشر بعد الطوفان من سلالة ذلك العدد القليل من المؤمنين.

وهذه هي الآية الثانية في المجموعة، قال تعالى: ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ فقد شاءت إرادة الله تعالى أن تستمر هذه المنة التي تطوق أعناق البشر دائماً، دليلاً على المنة الكبرى بإنجائهم من الغرق على عهد نوح عليه السلام وتسخير الماء لحملهم وتهيئة كل السبل لذلك. حقاً إن الإنسان هو الذي يقوم بصنع هذه الوسيلة ولكن، من الذي ألهمه بذلك؟ ومن علمه؟ ومن سخر الماء لحمله؟ ومن أوجد العناصر الضرورية لهذا العمل الذي جاءت الإشارة إلى أهم عناصره في قوله تعالى عن نوح عليه السلام [2]: ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر** ﴾ والمراد كما هو معروف الخشب والمسامير. ومن أوجد في الإنسان الرغبة في القيام بعمل كهذا والقدرة على التنفيذ. وقبل ذلك كله من الذي خلق الإنسان وأوجده من العدم؟ والجواب على كل هذه الأسئلة مجتمعة معروف: إنه الله عز وجل، الواحد الأحد الفرد الصمد.

وإذا كانت هذه الآية: ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ متعلقة بإرادته تعالى حملهم على الماء، فإن الآية التالية: ﴿ **وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون** ﴾ متعلقة بمشيئته تعالى إغراق من شاء منهم بهذا الماء ذاته الذي يحملون عليه. ويلاحظ أننا بصدد أسلوب الشرط، الذي يضفي على التعبير قوة، وله في هذه السورة دوره الفعال.

---

(١) سورة العنكبوت، آية ١٤.

(٢) سورة القمر، ١٣.

وإذا كانت جملة الشرط: ﴿ **وإن نشأ نغرقهم** ﴾ تقرر قدرة القادر على كل شيء بإغراق المكذبين، فإن القسم الثاني من الآية، ﴿ **فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون** ﴾ فيه تعميق لذلك التقرير وشيء من التفصيل. فالقول ﴿ **فلا صريخ لهم** ﴾ متعلق بالمغيث الخارج عن حدود أنفسهم والذي لن يوجد، أو الذي لو فرض أنه وجد فهو في حكم المعدوم. والقول: ﴿ **ولا هم ينقذون** ﴾ متعلق بالمغيث النابع من أنفسهم والمغيث الخارجي كذلك. فلا يستطيع هذا ولا ذاك أن يقوم بعملية الإنقاذ وقد قدر إغراقهم العزيز الحكيم.

ولا يخفى أن الحديث في هذه الآيات موجه بالدرجة الأولى إلى المكذبين من المكيين، وقد شاءت إرادته تعالى ألا يعجل لهم بالعقوبة، إنما يمهلهم علهم يعودون إلى طريق الحق. وذلك من مظاهر رحمته تعالى بعباده. ومن هؤلاء من يستفيد من فترة الإمهال هذه. ومنهم من يأكل ويتمتع ويلهيه الأمل دون أن يستفيد شيئاً لآخرته. وقد أوحت الآية الأخيرة في المجموعة ضمن ما أوحت بهذه المعاني. قال تعالى: ﴿ **إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾.

والحقيقة أن هذه الآية الأخيرة واحدة من الكثير من الآيات التي تشير إلى أن إرادة الله تعالى لم تشأ معاجلة المكيين بالعقوبة التي تقضي عليهم بالكلية، إنما كانوا يفتنون المرة تلو المرة بقصد أن يتدبروا الأمر، كما كانوا ينبهون إلى بعض آيات الله تعالى الدالة على قدرته المطلقة عز وجل كي يتدبروا الأمر كذلك. قال تعالى في سورة الرعد [1] ﴿ **أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾ وقال تعالى في سورة الحجر [2] ﴿ **الر، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين، ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلاَّ ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.**

(١) ٤١.

(٢) ١ - ٩.

وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين، ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

وإن لفظ رحمة في الآية قادر على نقلنا سريعاً إلى هذه الآية من القسم الأول من السورة ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ فصفتا الرحمة والعزة تصبغان السورة بلونيهما وإن آيات الله تعالى الثلاث، المكان والزمان، وحمل الناس فوق الماء من مظاهر قدرته عز وجل ورحمته بعباده.

* * *

القِسمُ الرّابع

عذاب الكافرين وثواب المؤمنين
الآيات (٤٥ ـ ٧٠)

السؤال الذي ينبغي أن يسأل بعد كل تلك الأدلة القاطعة على قدرة الله تعالى والتي أشار إليها القسم الثالث هو: ما مدى استجابة المكذبين من كفار مكة لهذه الدعوة إلى الله تعالى؟. والجواب على ذلك أنه الأعراض التام عن الآيات الثلاث التي نبه إليها القسم السابق وعن كل آية ينبهون إليها. والقسم التالي في السورة ينص على هذا الإعراض ومظاهره، من رفضهم لأن يتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم، وإعراضهم عن آيات الله تعالى الدالة على قدرته، ورفضهم إطعام المؤمنين فضلاً عن الإنفاق عليهم بينما هم يفخرون بالكرم، وإنكارهم للبعث الذي يفيض هذا القسم من السورة في الحديث عنه وتبيين موقف كل من المؤمنين والكافرين يوم القيامة وأخيراً زعم كفار مكة بأن القرآن الكريم ضرب من الشعر وأن الرسول الكريم شاعر ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾ (١).

وتتوزع هذا القسم ظاهرتا الترغيب والترهيب كل ذلك في ظل صفتي العزة والرحمة اللتين جاءت الإشارة إليهما في هذه الآية من القسم الأول في السورة قال تعالى: ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾. وهذه هي آيات هذا القسم، قال تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون**.

---

(١) سورة الكهف، ٥.

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إنْ أنتم إلا في ضلال مبين . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون. فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون. إنَّ أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولاً من رب رحيم. وامتازوا اليوم أيها المجرمون. ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأنِ اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جِبلاً كثيرا، أفلم تكونوا تعقلون، هذه جهنم التي كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون. ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون. وما علمناه الشعر وما ينبغي له، ان هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾.

من مظاهر إعراض الكافرين:

هذه الآيات الأربع تشير إلى عدد من مظاهر إعراض كفار مكة قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون، وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين، وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، إن أنتم إلا في ضلال مبين، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾.

والضمير في الآية الأولى من ﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾ يعود على المكيين. والمراد بما بين أيديهم، البعث والحساب. والمراد بما خلفهم، الأعمال غير الطيبة التي قاموا بها. وجواب إذا محذوف ، يدل عليه ما جاء في نهاية الآية التالية، وهذا من مظاهر الترابط بينهما، قال تعالى: ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين**﴾ فكأن معنى الآية وإذا قيل لهؤلاء المكذبين من المكيين آمنوا بالله ورسوله واعملوا صالحاً لمحو ما اقترفتم من آثام واتقاء العذاب الأليم يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، عسى أن تشملكم رحمة ربكم العزيز الرحيم، فإن هؤلاء المكذبين يصدون عن هذا القائل، وهو الرسول ﷺ ، صدوداً .

وهذه هي الآية الثانية، قال تعالى ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ . ولا يخفى أن من الأولى تفيد التبعيض، وذلك أبلغ في الدلالة، كما لا تخفى العلاقة المتينة بين هذه الآية والمجموعة السابقة من الآيات التي تتحدث عن نعمة المكان والزمان وحمل الناس فوق الماء. إن الشمول من سمات هذه الآية التي نحن بصددها. وإن صفة الإعراض التي تشير إليها كل من الآيتين نوع من علاقة بينهما.

وهذه هي الآية الثالثة، قال تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه . إنْ أنتم إلا في ضلال مبين** ﴾ فالمؤمنون يطلبون من الكافرين الموسرين أن ينفقوا عليهم، أو هذا ما يطلب من الكافرين ومع أن طلب الإنفاق عام ولا يقتصر على الطعام أو غيره إلا أن رد المكيين العنيف مقصور على الطعام، أهم ما يحتاج إليه الإنسان بعد الماء المتوفر. وحينما يشح هؤلاء الذين يفخرون بالكرم، على المؤمنين، بالطعام الذي كانوا يتفاخرون بتقديمه للناس، فمن باب أولى أن يمنعوا عنهم

غيره. فالجواب منهم على سبيل المبالغة، كمن يقول لشخص أعط لزيد دينارا فيقول: لا أعطيه درهماً، فهذا أبلغ من لا أعطيه ديناراً (١).

واستفهام كفار مكة الإنكاري ينطوي على الكثير من المكر. فهم يقولون ذلك النوع من القول للمؤمنين، وهم يظنون أنهم بهذا القول وبموقفهم، يحملون المؤمنين على الرجوع عن الطريق الصحيح الذي هداهم الله تعالى إليه، والجزئية الأخيرة ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ امتداد لمكر هؤلاء الكافرين. فكأنهم يوهمون بأن الإنفاق على المؤمنين أو إطعامهم وهم الذين لم يطعمهم الله عز وجل، ولو شاء لفعل، يعتبر عملاً مخالفاً لإرادة الله تعالى! وهذا منتهى المكر والكيد من الكافرين.

وحينما نقارن بين صدر الآية المتضمن للطلب من الكفار أن ينفقوا، وبين عجز الآية ووسطها، المتضمنين لرد الكافرين، فإنا نتبين أن اللين واللطف من سمات القول عن المؤمنين، وأن الغلظة والعنف من سمات القول عن الكافرين المكذبين.

والحقيقة أن هذه الآية واحدة من كثير من الآيات التي تدل على اعتقاد الكافرين المكيين وسواهم، ككفار قرية حبيب النجار، بوجود الله تعالى، ولكنهم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق أو يشركون مع الله آلهة أخرى. جاء في كتاب معالم في الطريق (٢): «إن الدعوة الإسلامية على يد محمد رسول الله ﷺ، إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام. وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق. وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق. ولم يكن الناس ـ فيما عدا أفراداً معدودة في فترات

---

(١) البحر المحيط، ٧/ ٣٤٠.

(٢) القسم الخاص بنشأة المجتمع المسلم وخصائصه ص ٦٢ من الكتاب.

قصيرة ـ ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة. إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى إمَّا في صورة الاعتقاد والعبادة، وإمَّا في صورة الحاكمية والاتباع. وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ويرتدون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى. إمَّا في الاعتقاد والعبادة، وإمَّا في الاتباع والحاكمية، وإما فيها جميعاً».

وبالإضافة إلى أنواع العلاقات بين هذه الآيات يمكن أن نقول: إنَّه على الرغم من أن هذه الآية ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون** ﴾ هي الآية المدنية في السورة فإن روحها مكي إذ تتحدث عن كفار مكة. وهذه رابطة تربط الآية بما جاورها. ويضاف إلى ذلك أنَّ الآية الأولى والثالثة تبدأ بالقول: ﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾.

وهذه هي الآية الرابعة التي تشير إلى استبعادهم ليوم القيامة وإنكارهم لحقيقة البعث، قال تعالى: ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾.

وحيث إنَّ قضية البعث هي المحور الذي تدور عليه هذه السورة، لذلك كان في الآيات التالية رد على هؤلاء المنكرين للبعث، وفي هذا الرد إسهاب. قال تعالى: ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون. فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون. إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك**

متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولاً من رب رحيم، وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾.

وهكذا نلاحظ أنه بالرغم من وجود أكثر من اعتراض من جانب كفار مكة، فإن الرد عليهم يتركز في إنكارهم لحقيقة البعث، وفي إيمانهم بها إيمان بكل ما عداها وعبادة منهم لله تعالى وحده لا شريك له وتصديق لرسوله ﷺ ولكل ما جاء به من عند ربه عز وجل.

وكان رد القرآن الكريم عليهم متضمناً لقيام الساعة، فالبعث، فجمع الخلائق للحساب فالثواب أو العقاب.

وهاتان الآيتان تتحدثان عن قيام الساعة، قال تعالى: **﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾.**

ومعنى «ما ينظرون أي ما ينتظرون. ولما كانت هذه الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها. وهذه هي النفخة الأولى تأخذهم فيهلكون وهم يتخاصمون. أي في معاملاتهم وأسواقهم. في أماكنهم من غير إمهال لتوصية ولا رجوع إلى أهل. وفي الحديث: تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم. والرجل يخفض ميزانه ويرفعه. والرجل يرفع أكلته إلى فيه، فما تصل إليه حتى تقوم» (١).

والأصل في يخصمون، يختصمون، بإدغام التاء في الصاد، ونقل حركة الصاد إلى الخاء.

ويلاحظ بشأن الآية الثانية ظاهرة التدرج المعنوي من الدرجة البسيطة إلى العالية، المبنية عليها. فلا يستطيع أحد حينما تقوم الساعة أن يوصي بشيء

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

ولا أن يقوم بشيء أهم من الوصية إلا وهو العودة إلى الأهل والأحباب.

وبعد قيام الساعة يكون البعث فالنشور، فالثواب أو العقاب، الجنة أو النار. قال تعالى: ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون. فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنت تعملون** ﴾.

والمشهد الأول تصوره هاتان الآيتان، قال تعالى: ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾.

وبديهي أن الآيتين عامتان، إذ تشملان كل الخلائق، بما في ذلك المكذبون من المكيين الذين جاء عنهم قوله تعالى: ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾. والأجداث، جمع جدث، وهو القبر، وينسلون: يسرعون، وإن القول في الآية ﴿ **إلى ربهم** ﴾ دليل على أنهم يتجهون وجهة معينة بمجرد خروجهم من قبورهم. تنفيذاً لما سمعته آذانهم ووعته صدورهم.

وما الذي يجيء على لسان هؤلاء المكذبين المنكرين للبعث فالحساب؟ يجيء على لسانهم قوله تعالى: ﴿ **يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾؟ لقد صعق هؤلاء المكذبون للحقيقة التي سبق أن أنكروها إنكاراً شديداً لضيق أفقهم وقصر نظرهم. وفي تلك اللحظة فقط يستيقنون من كل شيء. وذلك بعد الإفاقة السريعة جداً من هول الصدمة المفاجئة. ومن ثم فإنهم لا يخطئون أبداً الإجابة على السؤال الذي سألوا. «والمرقد: استعارة عن مضجع الميت. واحتمل أن يكون مصدراً، أي من رقادنا، وهو أجود. أو يكون مكاناً فيكون المفرد فيه يراد به الجمع أي من مراقدنا» [1].

---

(١) البحر المحيط ٣٤١/٧.

والحقيقة أن لفظة «مرقد» تدل على أن المتكلمين يظنون أنهم أوقظوا مما يشبه أن يكون نوماً كالذي عرفوا من قبل. وحيث إنَّ فترة النوم محدودة، فكأنهم يعتقدون أن لبثهم في الأجداث قريب في طوله من مدة النوم المعتاد وغاب عنهم أنهم لبثوا في قبورهم أوقاتاً لا يعلم حقيقة طولها إلا الذي يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها. قال تعالى في سورة طه[1]: ﴿ **يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زُرْقاً، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً** ﴾ وقال تعالى في سورة المؤمنون [2]: ﴿ **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين** ﴾.

ويلاحظ أن هؤلاء المكذبين لا يسألون مباشرة، ولا يبدأون بالقول: ﴿ **من بعثنا من مرقدنا** ﴾ كي يقال إنها مفاجأة فقط، ولكن يمهدون لذلك بالقول كما جاء على لسانهم ﴿ **يا ويلنا** ﴾ إنهم يذكرون جيداً مواقفهم المناوئة للدعوة إلى الله تعالى في الدنيا. لذا فإن أول ما يجري على لسانهم يتمشى مع سوء صنيعهم من قبل ﴿ **يا ويلنا** ﴾.

ولا يلبث هؤلاء المكذبون أن يستعيدوا في سرعة عجيبة موقفهم من الدعوة إلى الله عز وجل وتكذيبهم للرسل وللبعث والحساب فيكون القول على لسانهم: ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ والذي يلفت النظر في قولهم حقاً هو لفظ الرحمن، وكأنهم أدركوا أنَّ إرْسالَ الله تعالى رسله من مظاهر رحمته بعباده، ولكنهم كانوا قوماً ضالين، وأنهم في ذلك الموقف العصيب بحاجة إلى رحمة العزيز الرحيم، وأنى لهم ذلك وهم الذين لم تعرف الرحمة في الدنيا سبيلاً إلى قلوبهم ومن الأدلة على ذلك فعل قوم حبيب به، وفعل كفار مكة

---

(١) الآيات، ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) آية، ١١٢، ١١٣.

بالفئة القليلة المؤمنة، حتى إنهم منعوا عنهم الطعام فضلاً عن سواه، وبطبيعة الحال لا ينفع هؤلاء الكفار إيمانهم يوم القيامة ولا ندمهم على ما فرط منهم.

ويفهم من السياق أن النفخ في الصور مرتبط بالصيحة تمام الارتباط، فهي نفخة ذات صوت لا يعلم مداه إلا الله عز وجل، وهذه الآيات المكية من سورة القمر [1] دليل على ذلك، قال تعالى: ﴿**فتول عنهم . يوم يدع الداع إلى شيء نكر، خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾.

«**قيل: والصيحة قول اسرافيل عليه السلام، أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والشعور المتمزقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وهذا معنى قوله تعالى** [2] ﴿**يوم يسمعون الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج**﴾[3].

ويفهم من تلبية جميع الخلائق للنداء، أن الصيحة يسمعها الجميع بلا استثناء، ويعرف معناها على وجه اليقين، ومن هنا وصف المكان الذي يكون منه النداء بأنه قريب، لأن من متعلقات النداء الذي يسمع قرب المكان. قال تعالى [4]: ﴿ **واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب** ﴾.

وحينما يتمثل عقلنا القاصر تلك الخلائق التي لا يعلم تعدادها إلا الله عز وجل، والتي تسمع كلها النداء الواحد، نعلم يقيناً أن لقوة النداء دوراً في سماعه. وهي قوة وضعها الله تعالى في واحد من جنده، وسبق أن كان من نصيب قوم حبيب شيء منها، وكذلك لكل الخلائق إيذاناً بقيام الساعة.

---

(١) الآيات، ٦ ـ ٨.
(٢) سورة ق، ٤٢.
(٣) البحر المحيط ٧/٣٤١.
(٤) سورة ق، ٤١.

فسبحان القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وما أضعف الخلائق.

وإن القول ﴿ **فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ الذي يشير إلى أن كل الخلائق وبلا استثناء سيحضرون للحساب. والجزاء، لكفار مكة وقوم حبيب منه أوفى نصيب.

وهذه الآية ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾ لكل الناس منها. نصيب الكافرون والمتقون على حد سواء. ولكن التعبير في حقيقة الأمر يسير مع الجو العام للآيات. ففيه الجد والصرامة. وبخاصة لأن فيه التفاتاً فكأن المعنيين بالحديث هم المكذبون فقط، مع أن المتقين لهم فيها نصيب وبخاصة في القسم الثاني منها ﴿**ولا تجزون إلاَّ ما كنتم تعملون**﴾.

والترابط بعد ذلك غاية في الإحكام بين قسمي الآية التي تنظمها ظاهرة التدرج المعنوي أو البناء الهرمي للمعاني، وذلك في الإطار العام للظروف ومقتضيات الأحوال، فالقسم الأول يتحدث عن نفي الظلم تماماً في ذلك اليوم ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئاً** ﴾ هذه هي القاعدة الأولى التي تجيء في موضعها بعد ما سبقها من إشارات لنفي الكفار أن يكون هناك بعث وحساب. وحيث إنَّ الإشارة ستجيء متعلقة بحساب هؤلاء يوم القيامة، لذا لزمت الإشارة إلى ذلك مع نفي الظلم عن الجميع بما في ذلك الكافرون. وجاء مبنياً على القاعدة الأولى قوله تعالى ﴿ **ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ ويتوجه الحديث هنا لكل الناس بلا استثناء، المؤمنين والكافرين على حد سواء، والآية أخيراً تحذر من طرف خفي مغبة الاستمرار في الطريق الخاطئة، وينتقل الحديث بعد ذلك إلى هذين الفريقين المؤمنين والكافرين أو أصحاب الجنة وأصحاب النار.

أصحاب الجنة وأصحاب النار.

قال تعالى: ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولاً من رب رحيم. وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾.

«والفاكه والفكه: المتنعم والمتلذذ. ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ به وكذلك الفكاهة وهي المزاحة» (١) والأرائك، جمع أريكة، وهي «السرير في الحجلة، وقيل الفراش فيها (٢)» والحجلة في الأصل: بيت يزين للعروس، والجمع حجال وحجل. «وامتازوا: وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة» (٣).

ويلاحظ أن أربعاً من الآيات الخمس تتحدث عن أصحاب الجنَّة والنعيم الذي أعده الله عز وجل لهم، بينما تتحدث الآية الأخيرة الوحيدة عن المجرمين حديثاً مقتضباً. وحينما نتبين أن هذه الآيات الأربع. التي تتحدث عن أصحاب الجنة، إنما تأتي بعد العديد من الأجواء العاصفة، ندرك شيئاً من المغزى الذي يهدف إليه هذا التقابل وعرض صورتين مختلفتين وشيئاً من المغزى الذي يهدف إليه الانتقال السريع من الجو العاصف إلى الجو الآخر الهادىء الرخاء. وكل ذلك يمكن أن يتلخص في القول بأن الآيات الأربع تهدف إلى الترغيب والتحبيب في الجنة. وجاءت الآية الخامسة مؤكدة لهذا الترغيب والتحبيب عن طريق التنفير مما يؤدي في النهاية إلى سوء العاقبة، مطلقة العنان للخيال في تمثل الصورة المقابلة المكروهة.

والحقيقة أن كل الإشارات في الآيات الأربع محببة في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالإشارات كلها متعلقة

---

(١) الكشاف ٢/٥٩١.
(٢) الكشاف ٢/٥٩١.
(٣) الكشاف ٢/٥٩١.

بالنعيم والترف. فقد أشير إلى المتقين بأنهم أصحاب الجنة، وما أكبرها مِنَّةً منه تعالى على عباده المتقين. وإن لفظ اليوم في الآية ينقلنا سريعاً إلى أنواع المشاهد التي يصادفها في ذلك اليوم الفريق المقابل. وإن القول ﴿ **فاكهون** ﴾ من التفكه بمعنى التنعم والتلذذ يبين معنى القول ﴿ **في شغل** ﴾ فهؤلاء المتقون لسرورهم بما مَنَّ الله تعالى عليهم مشغولون تماماً بكل ما يبهج النفس ويسرها. ولا يخطر ببالهم مطلقاً ما ينغّص عليهم لذتهم. ومن مظاهر التنعم والتلذذ أن معهم آنذاك أزواجهم يشاطرنهم النعيم. والآية تستعمل القول ﴿ **في ظلال** ﴾ ومع أنه ليست هناك الشمس التي يحتاج معها إلى الظلال إلا أن الإشارة إليها قادرة على إحداث شيء كبير من الراحة في النفس التي يحدث لها في الدنيا شيء كبير من السعادة في الظلال. فالمراد الرمز بهذا القدر من السعادة في الدنيا على السعادة غير المحدودة في ظلال الآخرة.

ومن مظاهر التنعم والتلذذ تلك السرر المرفوعة المفروشة، والاتكاء الذي هو في حقيقته مظهر من مظاهر راحة البال والانشراح.

وانتقاء لفظ الفاكهة، للإشارة إلى ما يطعمه أصحاب الجنة، مكمل لصورة التنعم والتلذذ. فالمعروف أن الفاكهة ـ ويبدو ذلك مما اشتق منه اللفظ ذاته ـ إنما هي من قبيل التلذذ والترف وليست بالغذاء الأساسي. ووجود ما هو من قبيل التفكه دليل على وجود ما يتقدمه. وبنى على التنعم في هيئة وجود الفاكهة تنعم آخر أكثر اتساعاً وشمولاً أشار إليه قوله تعالى ﴿ **ولهم ما يدَّعون** ﴾ أي ولهم ما يطلبون ويشتهون.

وتوِّج كل ذلك النعيم بالسلام عليهم من رب رحيم. فقد جاء في الآية الأخيرة قوله تعالى ﴿ **سلامٌ قولاً من رب رحيم** ﴾. والسلام بمعنى الأمن والطمأنينة والسكينة، ولا زلنا مع اللفظ الدال على رحمة البر الرحيم وهو معمق لما سبق أن قلنا من أن لفظي ﴿ **العزيز الرحيم** ﴾ في الآية الخامسة من القسم الأول يصبغان السورة بلونيهما.

تأنيب للكافرين:

قال تعالى: ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنَّه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلاً كثيرا، أفلم تكونوا تعقلون. هذه جهنم التي كنتم توعدون، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾.

والاستفهام في هذه الآية ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنَّه لكم عدو مبين** ﴾. تقريري. فالله عز وجل الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم أوصى هذا الإنسان وعهد إليه بألا يعبد الشيطان وأن يخلص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. أما كيف تم ذلك العهد وتلك الوصية فعن طريق القوى التي أودعها الله عز وجل في الإنسان. تلك القوى القادرة على التمييز بين الطريقين الصحيح وغير الصحيح، اللذين نبه إليهما رسل الله تعالى [1]: ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾. وقال تعالى [2]: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنَّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾.

ويبدو من القول ﴿ **يا بني آدم** ﴾ في الآية، تكريم الله تعالى للإنسان الذي يوجه إليه الحديث. ويغلب على هذا الإنسان الانحراف عن الصراط المستقيم. وعبادة الشيطان تكون في صور شتى منها طاعته وهو الذي تكفل بإغواء عباد الله تعالى إلا المخلصين. وكثير من الإشارات في القرآن الكريم إلى

---

(١) سورة النحل، ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، ١٧٢، ١٧٣.

هذا الموقف. منها ما جاء في سورة الحجر، قال تعالى[1]: ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنّي خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم. قال رب بما أغويتني لأزينّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط عليّ مستقيم. إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾.

ومع كل هذه التنبيهات والتوجيهات من رب العزة، فقد كان الشيطان، عليه لعنة الله قادراً على أن يضل جماعات كثيرة من الناس. ولم ينتفع هؤلاء ولا السائرون في طريقهم بنعمة العقل التي فضل الله تعالى بها الإنسان، قال تعالى: ﴿ **ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً، أفلم تكونوا تعقلون** ﴾. وتلك هي النتيجة السيئة والعاقبة الوخيمة، قال تعالى: ﴿ **هذه جهنم التي كنتم توعدون، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾. لقد كان هؤلاء يكفرون بالبعث والحساب والجنة والنار. ومن ثمّ استهوتهم الطريق الخاطئة التي أدت بهم إلى الهلاك المحقق.

ولا يخفى أن الموقف العصيب يوم القيامة، سيكون من نصيب أهل القرية، قوم حبيب النجار الذين كذبوا رسل الله تعالى، ومن نصيب كفار مكة الذين كذبوا الرسول النبي الأمي ﷺ.

---

(١) الآيات، ٢٨ - ٤٤.

من مظاهر قدرته عز وجل:

على أثر تأنيب الله عز وجل لبني آدم الذين عصوه وأطاعوا الشيطان الرجيم عليه لعنة الله تعالى، جاءت أربع آيات تعبر عن بعض مظاهر قدرته عز وجل في لهجة حادة بما في ذلك المظهر الأخير لقدرته عز وجل الَّذي هو من نصيب كل البشر الذين نسأ الله تعالى لهم في آجالهم. ونستطيع أن نقول إنَّ الآيتين الأوليين اللتين تتحدثان عن المظهرين الأولين لقدرته عز وجل متعلقتان بيوم القيامة، وإن الآيتين الأخريين اللتين تتحدثان عن المظهرين الأخيرين لقدرته عز وجل متعلقتان بالحياة الدنيا، فما أعدلها من قسمة. قال تعالى. ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون. ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾.

والآية الأولى ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ تنص على أن جوارح الإنسان يوم القيامة هي التي تتكلم وهي التي تشهد بما حدث منها لأن الله عز وجل، الذي أنطق كل شيء أنطقها، قال تعالى في سورة فصلت [1]: ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾.

---

(١) الآيات، ١٩ - ٢٣.

وإن القول في الآية: ﴿ **اليوم نختم على أفواههم** ﴾ يشير إلى قدرة القادر على كل شيء بأن يعطل يوم القيامة العمل المهمّ لهذه الجارحة جارحة اللسان، وهو الكلام مع إحداث البديل على التعبير عن طريق الجوارح الأخرى، ومنها الأيدي والأرجل، كما يبدو في باقي الآية، وهذا القول يسد على الكافرين باب الكذب الذي اعتادوا في الحياة الدنيا الدخول منه والخروج. فإذا كانوا من قبل قد اعتادوا الكذب وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا عن طريقه ربحاً وفيراً وإذا كانوا قد سولت لهم أنفسهم بأن هذه الطريقة يمكن أن تسلك في سبيل أي نفع، فإن الإشارة القرآنية هنا واضحة الدلالة بأن هذه الجارحة ستعطل يوم القيامة عن العمل. وهذا هو البديل في الآية عن الفم، قال تعالى: ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾.

إنّنا في حقيقة الأمر أمام قضية يعترف فيها المتهم بما جرح، وعليه العديد من الشهود العدول، وليس وراء ذلك كله إلا إصدار الحكم العادل ضده: كما جاء في سورة ق [1]: ﴿ **ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد** ﴾.

ولنا في حقيقة الأمر وقفة متأملة عند قوله تعالى ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ من حيث الترتيب المنطقي للعبارات أو البناء الهرمي للمعاني، وذلك في تقديم الكلام أو الاعتراف على الشهادة التي تأتي عادة من خارج النفس. ومن حيث نسبة الكلام إلى الأيدي ونسبة الشهادة إلى الأرجل.

أما من حيث تقديم الكلام أو الاعتراف على الشهادة فهذا شيء طبيعي، فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا، وبخاصة المصيرية، وفق هذا النسق. الاعتراف أولاً والشهود ثانياً. وهذا ما بينه قوله تعالى في هذه الآية ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾.

---

(١) الآيات، ٢٤ ـ ٢٦.

أما من حيث نسبة الكلام إلى الأيدي والشهادة إلى الأرجل، فالحقيقة أننا نفهم من قوله تعالى: ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم** ﴾ أن دور الكلام في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة. وبخاصة حينما يكون هناك توافق تام بين ما يدلي به المعترف وما يدلي به الشاهد، وهذا ما نفهمه كذلك في كل قضية. فإذا عرفنا أن اليد يرتبط بها أكثر الأعمال أهمية ودقة وفعالية، كل ذلك بأكثر مما يرتبط بالرجل، أدركنا لماذا أنزلت الأيدي في هذه القضية الحيوية المصيرية منزلة الشخص المعترف، والأرجل منزلة الشخص الشاهد، قال تعالى: ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾.

وقد يقول قائل: ما دام منطوق المعترف والشاهد واحداً، فلماذا لم نكتف في هذه القضية بالاعتراف ونستغني بناء على ذلك عن الشهادة؟ والجواب على ذلك أن المعترف والشاهد في هذه القضية بمنزلتين دقيقتي القرب من بعضهما، وأن دور كل من الأيدي والأرجل يكاد يكون واحداً. فإن شئت قلت، إنَّهما يكادان يكونان بمنزلة الاعتراف، لأنهما لاصقان بالإنسان، وإن شئت قلت إنهما بمنزلة الشهود العدول في القضية، لأن المسؤول الأول هو الإنسان. وإنَّما نزلت اليد منزلة الشخص المعترف والرجل منزلة الشخص الشاهد، في سبيل تقريب هذه المعاني لنا نحن البشر وتوضيحها. وبما أن الترابط وثيق بين الاعتراف والشهادة لذا تم الجمع بينهما. وبما أن الاعتراف يسبق الشهادة لذا لزمت الشهادة في هذه القضية بعد الاعتراف وكانت ضرورية، فكان قوله تعالى: ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ وإن القول ﴿ **يكسبون** ﴾ يعرفنا بأن كسب الكافرين خسارة فادحة في جوهرها.

والآية التالية تبين المظهر الثاني لقدرته عز وجل، قال تعالى: ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون** ﴾.

والطمس هو محو العين بالكلية وليس الاكتفاء بذهاب البصر وما أبشعه من منظر، وما أشد دلالته على الذنوب العظام التي ارتكبها أولئك المكذبون، وأهمها الشرك بالله، فاستحقوا غضب العزيز الرحيم.

وفي أي وقت كادت هذه الإرادة تتم؟ وقت عبور الصراط الممدود على جهنم والذي يجب أن يعبره كل الناس بلا استثناء، وهذا هو معنى ورود جهنم الذي جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى من سورة مريم [1]: ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾. وما أشد هول ذلك المنظر المتصور، لأولئك الذين طمس الله تعالى على أعينهم وهم يستبقون الصراط. إنَّهم لا يحسنون السير على ما عدا الصراط، فكيف يستطيعون الوصول إليه فضلاً عن السير عليه وقد ذهبت منهم الأبصار وبعدت عنهم قوة الإبصار.

وهذه هي الآية الأولى المتعلقة بالحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون** ﴾ وتشير إلى مظهر من مظاهر قدرته تعالى وهو مسخه عز وجل لأولئك المكذبين حجارة لو شاء في أماكنهم وعلى الوضع الذين هم فيه، فلا يستطيعون بحال من الأحوال أن يواصلوا الحركة إلى الجهة التي أرادوا. ولا يستطيعون أن يعودوا من حيث أتوا. ويلاحظ أن هذه الآية والتي سبقتها تبدأ بالقول ﴿ **لو نشاء** ﴾ وهو رباط لفظي يضاف إلى الرباط المعنوي، وهو أن كلاًّ منهما تتحدث عن مظهر لقدرته عز وجل. وأخيراً فإن الآيتين من حيث التركيب، تسيران على وتيرة واحدة، وتستغرقان وقتاً يكاد يكون واحداً، فكل واحدة من الآيتين تتكون من قسمين رئيسيين متماثلين. وقد دخلت اللام على جواب لو في الموضعين، كما أن كلاًّ من القسمين الأخيرين يتكون من شطرين مماثلين لما يقابلهما في الآية الأخرى. قال تعالى: ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون** ﴾.

---

(١) الآية، ٧١.

وهذه هي الآية الأخيرة في المجموعة، وهي تتعلق بالحياة الدنيا كسابقتها، قال تعالى: ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾.

ومن البين أننا بصدد أسلوب الشرط الذي له دور من نوع ما في هذه السورة، فليس الكلام هنا عادياً بل قوياً وتتجلى فيه قدرة القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. والحقيقة أننا أمام آية دالة على قدرته عز وجل يعيها كل واحد منا. فكل إنسان يمد الله تعالى له في العمر يأخذ بمرور الأيام بأسباب الضعف بعد القوة، والعجز بعد القدرة، والمرض بعد الصحة، والشيخوخة بعد الشباب، فالموت أخيراً بعد التدفق بالحيوية والنشاط، ولا دخل للإنسان في شيء من كل ذلك، فالأولى به أن يأخذ العبرة ويتعظ.

والحقيقة كذلك أننا نستطيع أن نقول عن الآيات الثلاث الأول شيئاً، كما نستطيع أن نقول عن الآية الرابعة شيئاً قائماً بذاته. فإذا كانت الآية الأولى: ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ تتحدث عن أشياء ستحدث يوم القيامة بالفعل، وكانت الآية الثانية: ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون** ﴾ تتحدث عما بالإمكان أن يفعله عز وجل بالمكذبين يوم القيامة. وكانت الآية الثالثة: ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون** ﴾ تتحدث عما كان بالإمكان أن يفعله عز وجل بالمكذبين في الحياة الدنيا على غرار ما حدث لبعض المكذبين من قبل، فإن الآيات الثلاث في مجموعها تتحدث عن أشياء لا يتبين المكذب شيئاً منها ببصره، فضلاً عن أن يتبينها ببصيرته تلك التي عميت. وقد قامت الآية الرابعة والأخيرة: ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾ بنقل هذا النوع من الناس وكل إنسان إلى دنيا الواقع المشاهد كي يقيس هذا المظهر لقدرة الله تعالى القادر على كل شيء والذي يراه بعيني رأسه على ما لم ير ولما يقع بعد مما وصله عن طريق رسول الله ﷺ، وكي يعبد الله

تعالى وحده لا شريك له ويصدق بالمصطفى ﷺ وبكل ما جاء به من عند ربه عز وجل.

إن هذه الآية القصيرة نسبياً ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾ عميقة الغور بعيدة المغزى. فهي قادرة على حمل كل ذي بصيرة نيرة على أن يفكر كثيراً وكثيراً في هذا الإنسان الذي حارت البرية فيه. من أوجده من العدم إلى أن توفاه؟ إنَّه الله عز وجل القادر على كل شيء العزيز الرحيم. ويجد الإنسان المنصف شفاء لغليله في مثل قوله تعالى [1]: ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور** ﴾.

الرسول الكريم ليس بشاعر:

نستطيع أن نقول عن هاتين الآيتين الأخيرتين في هذا القسم، إنَّهما تتحدثان عن ذات العناصر التي تحدث عنها القسم الأول من السورة، ولكن في إيجاز ومن زوايا معينة، وهذه العناصر هي الرسول الكريم، والقرآن الحكيم، والقوم الكافرون، والأتباع المؤمنون، والبعث فالحساب. قال تعالى: ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إنْ هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين** ﴾ فمع أن هؤلاء المكيين المكذبين من أفصح الناس وأكثرهم قدرة على إعطاء الكلام قيمته الحقيقية، ومع أنهم لم تخف

(١) سورة الحج، ٥ ـ ٧.

عليهم الحقيقة القائمة من أن القرآن الكريم ليس بشعر لأنهم أخبر الناس بالشعر، فإنهم حسداً من عند أنفسهم، وحرصاً على إبعاد الناس عن الإسلام وصدهم عن السبيل، يصرون على الزعم بأن القرآن الكريم شعر، والرسول الكريم شاعر، مستغلين ظاهرتي التلاؤم الصوتي والفواصل في القرآن الكريم وقربهما فيه مما هو موجود في الشعر من موسيقى وقافية. وقد بينت هذه السورة الكريمة كذب هؤلاء فنفت عن القرآن الكريم صفة الشعر وأثبتت له أنه ذكر وقرآن مبين، وقبل ذلك أثبتت السورة أنه قرآن حكيم، وأنه تنزيل العزيز الرحيم. فثبت بذلك أن النبي ﷺ مرسل من رب العالمين وأن القرآن الحكيم معجزته الكبرى الخالدة.

وتتكون كل من الآيتين من قسمين وهذا هو القسم الأول من الآية الأولى، قال تعالى: ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾. ويفهم منه:

١ ـ أن النبي ﷺ لم يعلَّم الشعر.

٢ ـ أن الشعر هبة يخص الله تعالى به البعض دون البعض الآخر من الناس.

٣ ـ أن الذي ينذر به النبي ﷺ قومه شيء آخر ليس من الشعر في شيء.

إذ لا يليق الشعر في كل صوره بالمصطفى ﷺ.

بل إنَّه ﷺ وهو من هو فصاحة وبياناً، لم يكن، بإرادته عز وجل، ليستقيم على لسانه وزن البيت الواحد من الشعر، إنما كان يحرز المعنى.

ويدل القسم الثاني في الآية ﴿**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾ على حقيقة ما يرتله المصطفى ﷺ. وواضح أسلوب القصر في هذا القسم من الآية.

ونستطيع أن نفهم معنى لفظ «ذكر» من طبيعة هذه المادة اللغوية والمعنى الأول الذي توحي به. فهذا الذي أوحى به للمصطفى ﷺ حامل لكل ذي لب على أن يأخذ العظة والاعتبار مما جاء فيه من أخبار أكيدة عن عاقبة المكذبين

السابقين الوخيمة. ونستطيع أن نفهم من القول: ﴿ **وقرآن مبين** ﴾ بأن هذا القرآن الكريم قد يسره رب العزة بلسان عربي مبين كي يتلى في المحاريب ويتعبد ويتقرب إلى الله تعالى به.

ولكن من ذا الذي سينتفع بهذا الكتاب العزيز الذي هو ذكر وقرآن مبين، ومن ذا الذي لا ينتفع؟ لقد بينت الآية التالية هذا، قال تعالى: ﴿ **لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين** ﴾.

ويلاحظ أن الآية تستعمل لفظ «حيًّا» للدلالة على المؤمنين، بينما تستعمل لفظ الكافرين صراحة. وفي استعارة الآية لفظ «حيًّا» مغزى بعيد. فمع أن الكافرين الذين يشملهم الحديث في الآية أحياء، إلا أن الآية لا تستعمل بشأنهم هذا اللفظ، فكأنهم في حكم الأموات. وهذا صحيح. فالمؤمنون الذين يعبدون الله تعالى وحده حق العبادة، هم الذين يقومون بتحقيق السبب الأهم الذي خلقهم الله عز وجل من أجله، قال تعالى: ﴿ **وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون** ﴾ فثبت بذلك أنهم أحياء فعلاً، لأنهم انتفعوا بنعم الله تعالى إليهم التي لا تحصى، ومن بينها نعمة العقل. أما الآخرون المكذبون فكانوا دائماً بعكس هؤلاء تماماً ﴿ **يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ [1] إذَنْ هم في حكم الأموات سكان القبور، لأنهم لم ينتفعوا من كل خير يسره الله عز وجل لهم، بل على العكس من ذلك حرصوا على الشر كل الشر، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ويوم القيامة يثاب المتقون ويعاقب الكافرون.

والحقيقة أن الشبه بين هاتين الآيتين وآيات القسم الأول من السورة، يتخطى الموضوعات إلى نوع من التشابه في القول. فقد جاء هنا قوله

---

(١) سورة محمد، ١٢.

تعالى: ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ وجاء في القسم الأول قوله تعالى: ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾.

ونستطيع في ضوء هذا القول أن نقول إنَّ نسبة الأحياء، أعني المؤمنين إلى الأموات، أعني الكافرين، قليلة، فبهذا قضت إرادة العزيز الرحيم.

---

(١) ٢١، ٢٢.

القسم الخامس

لا ينتفع الكافرون من آية خلق الأنعام
الآيات من (٧١ ـ ٧٦)

هذا القسم يتكون من آيات، من شقين، كل شق يتكون من ثلاث آيات. ويعتبر الشق الأول الذي يتحدث عن نعمة الله تعالى على الناس بخلق الأنعام التي هي مظهر من مظاهر قدرته عز وجل امتداداً في الحقيقة للقسم الثالث في السورة الذي يتحدث عن ثلاثة من مظاهر قدرته تعالى الممثلة في آيات المكان والزمان وحمل الناس فوق الماء. ويمكن أن يقال أيضاً إن هذا الشق الذي يتحدث عن الأنعام جزء مكمل لآية حمل الناس فوق الماء بسبب الاشتراك بين الآيتين في حمل الناس. جاء في سورة المؤمنون [1] مثلاً قوله تعالى: ﴿ **وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون، وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾.

وإن العودة إلى آية أخرى من آيات الله تعالى هي آية الأنعام بعد الحديث من قبل عن آيات المكان والزمان وحمل الناس فوق الماء، مظهر من مظاهر التعبير غير المباشر عن استمرار الذين يهمهم الحديث في غيهم فهم في حاجة إلى أن يستمر تنبيههم المرة تلو المرة. وهذا التعبير غير المباشر عن هذه الحقيقة في الشطر الأول من هذا القسم موطىء للتعبير الصريح بهذه الحقيقة في الشطر الثاني الذي فيه نص على شرك هؤلاء المكيين، ودعوة صريحة للمصطفى ﷺ.

---

(١) الآية ٢١، ٢٢.

بألا يحزن لعدم إيمان قومه فإن مهمته عليه الصلاة والسلام تقف عند تبليغ الرسالة وإيصال الأمانة، والأمر بعد ذلك كله لله تعالى الواحد القهار. وهذه هي آيات هذا القسم، قال تعالى: ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون. واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون. فلا يحزنك قولهم إنَّا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾.

وفيما يتصل بالآية الأولى ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون** ﴾ فإنا نقف عند جملة «خلقنا» التي تنقلنا سريعاً إلى جملة مماثلة لها في مناسبة قريبة من هذه وهي التي تتعلق بحمل الناس فوق الماء. قال تعالى: ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ ونستطيع أن نقول إنَّ جملة «خلق» رباط يربط المجموعتين من الآيات على الرغم من تباعدهما. فإن المعنى واحد، فالله عز وجل هو خالق الأنعام، وهو خالق المواد الأساسية لصنع الفلك وخالق الإنسان صانع السفن.

ولا نستطيع إلا أن نقف ملياً عند الجار والمجرور «لهم» المتعلقين بجملة «خلقنا» فالله عز وجل إنما خلق هذه الأنعام أساساً بقصد أن ينتفع بها الناس، بما في ذلك المكيون المكذبون للرسول ﷺ المنكرون للبعث فنفع الناس هو الهدف من خلق الأنعام، وليس النفع حدثاً عارضاً فما أكبرها من مِنَّة يمن الله تعالى بها على عباده. والمراد أساساً بالأنعام الإبل. وتطلق على البقر والغنم. ومن نعم الله تعالى أن جعل النفع الحاصل من الأنعام سهلاً تناوله. فهم يملكونها، ويركبونها ويأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها هذا إلى مظاهر النفع الأخرى. جاء في سورة النحل [1] قوله تعالى: ﴿ **والأنعام خلقها لكم**

---

(١) ٥ - ٩

فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ وقال تعالى [1]: ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ وقال تعالى [2]: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾.

وقد جاءت في الآية الأولى الإشارة إلى الأيدي، قال تعالى: ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ﴾ كما جاءت الإشارة إليها في موضعين آخرين في السورة، وكل ذلك من قبيل تقريب المعاني لنا نحن البشر في اللغة التي نفهم ولأن العادة جرت بأن يرتبط بالأيدي في عرفنا أكثر الأعمال وأكبرها أهمية. وهذان هما الموضعان الآخران. قال تعالى: ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ وقال تعالى: ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾. وهذا القول الذي ختمت به الآية الأولى بشأن نعمة المكان ﴿ أفلا يشكرون ﴾ هو الذي جاء في ختام الشق الخاص بنعمة الأنعام، وهذا رباط يشد هذه المجموعة إلى المجموعة السابقة. ويربط بين المجموعتين أساساً التعبير عن بعض مظاهر قدرة القادر على كل شيء.

وعلى الرغم من كل التنبيهات إلى هذه المظاهر لقدرة الله تعالى القادر على كل شيء، فقد ظل كفار مكة على عنادهم مما أحزن المصطفى ﷺ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن أن يحزن، لأن كل ذلك إنما يتم بعلم الذي لا يخفى عليه

---

(١) سورة النحل، آية ، ٦٦.

(٢) سورة النحل، آية، ٨٠.

شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذا تعميق لتسليته ﷺ التي مرت بنا من قبل في أكثر من موضع. قال تعالى: ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون. فلا يحزنك قولهم إنَّا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾.

والعجيب أن هؤلاء الكفار لا يعبدون الله عز وجل حق العبادة وهو الخالق لكل شيء بينما يعبدون الآلهة التي لا تخلق شيئاً! جاء في سورة الحج [1] قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره، إن الله لقوي عزيز** ﴾. وجاء في سورة الفرقان [2] قوله تعالى: ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾.

وقد بينت هذه الآية ﴿**لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون**﴾ حقيقة عجز هذه الآلهة التي لا تقدم أي نصر بدافع من العجز وليس بدافع عدم الرغبة.

أما عجز هذه الآية ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ فنستطيع في سبيل تبيين معناه أن نستأنس بما جاء في سورة مريم عن هذه الآلهة التي ستكفر بعبادة المشركين لها قال تعالى [3]: ﴿ **كلاَّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً** ﴾ والمعنى أن الآلهة التي عبدها من دون الله تعالى الكافرون المكذبون، الذين أرادوها أن تكون لهم عزاً، ستكون يوم القيامة عليهم ضداً ولهم ذلاً.

في ضوء هذه المعاني يمكن أن نقول إن الضمير «هم» يعود على الآلهة

---

(١) الآية، ٧٣، ٧٤.

(٢) آية، ٣.

(٣) سورة مريم، ٨٢.

والقول «لهم» يعود على الذين اتخذوا الآلهة من دون الله تعالى. فكأن المعنى: إن هؤلاء الذين اتخذوا آلهة سيكونون يوم القيامة جنداً ضد هؤلاء العابدين لهم من دون الله تعالى في الحياة الدنيا، وإن القول محضرون ينزل هؤلاء الذين أريد منهم النصر منزلتهم الحقيقية فليس عليهم حينما يؤمرون بالحضور إلا أن يمتثلوا أمر الواحد القهار. وعلى هذا يكون الجار والمجرور «لهم» بمعنى «عليهم». والله أعلم.

ولعلنا لاحظنا في هذا القسم التعرض لقضية البعث بعد الموت، وهي المحور الذي تدور حوله هذه السورة المباركة. والمراد بالقول في الآية ﴿ **فلا يحزنك قولهم** ﴾ ما يزعم كفار مكة بأن القرآن الكريم شعر والرسول الكريم شاعر. وهذا نوع من الرباط بين شقي هذا القسم الخامس من السورة.

* * *

القسم السادس

الله تعالى قادرٌ على إعادة خلق الإنسان والسّماوات والأرض ـــ الآيات (٧٧ ـ ٨٣)

إذا كان القسم السابق يتحدث ضمناً عن كفار مكة المكذبين للرسول ﷺ المنكرين لحقيقة البعث، فإن هذا القسم الأخير في السورة يتحدث ضمناً عن واحد من هؤلاء المكيين المنكرين لحقيقة البعث. وإذا كان القسم السابق يتحدث عن خلق الله تعالى للأنعام فإن هذا القسم، يتحدث عن مظهرين للخلق أكبر من خلق الأنعام، ويعتبر المظهر الثاني أكبر من الأول، فكأن هذا القسم بالقياس إلى سابقه يحقق ظاهرة التدرج إزاء حقيقة خلق الله تعالى للموجودات، والمظهر الأول هو خلق الله تعالى للإنسان الذي يكبر خلق الأنعام، والمظهر الثاني هو خلق الله تعالى للسماوات والأرض وهي تكبر خلق الناس بنص القرآن الكريم.

ويحاول هذا القسم تنبيه هذا المنكر للبعث بأن يتحول ببصره من الزاوية التي ينظر منها وهي إعادة الحياة إلى عظم الإنسان مرة أخرى، وهو ما يستبعده هذا الإنسان، إلى الزاوية المقابلة تماماً، وهي إيجاد هذه العظام من العدم. وحينما يوقن بأن الله عز وجل هو موجدها من العدم يسهل عليه بعد ذلك تصور إعادة الحياة إليها، فالإيمان بحقيقة البعث. وهذان العملان وإن كانا بالنسبة للذات العلية في درجة واحدة من اليسر، فالمتعارف عليه بين البشر أن إعادة صنع الشيء أسهل من إيجاده ابتداء. وإن نقل هذا الإنسان المنكر للبعث

من النظر خلال زاوية معينة إلى النظر خلال زاوية مخالفة تماماً، خير مهيء للانتقال إلى شيئين مختلفين في الطبيعة تماماً، ومن هذا الاختلاف يحدث بقدرة القادر على كل شيء انسجامهما والنفع منهما. وهذان الشيئان هما العودان الأخضران من ناحية والنار من ناحية أخرى، التي تتولّد من احتكاك العودين الأخضرين اللذين يقطر منهما الماء ببعضهما، وهذا مظهر آخر من مظاهر قدرة القادر على كل شيء والذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما نصت على ذلك الآية قبل الأخيرة في السورة. وختمت السورة بتنزيهه عز وجل الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع كل الخلائق. ويلاحظ أن آخر ما ختمت به السورة هو الإشارة إلى حقيقة البعث بعد الموت. والبعث هو المحور الذي تدور حوله السورة كما هو معروف. قال تعالى: ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾.

لقد ابتدأ هذا القسم بالقول ﴿ **أو لم ير الإنسان** ﴾ وهو قريب مما ابتدأ به القسم السابق ﴿ **أو لم يروا** ﴾ ومثل هذا التعبير الذي تردد في السورة، والذي هو بمعنى «أو لم يعلم» يعتمد على حاسة الرؤية ذات الدور الأقوى بين الحواس في مثل هذه المناسبة.

والحقيقة أن التعبير القرآني في الآية الأولى، على الرغم من أنه يتحدث بالدرجة الأولى عن الإنسان الكافر المعاند المنكر للحق، إلا أنه يتعامل مع المخاطب من حيث كونه إنساناً قد كرمه الله عز وجل وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً. ولكن هناك نوعاً معيناً

من الناس غفل عن هذا التكريم الذي حباه الله عز وجل به، فقد خرج من العلياء التي هيأها الله عز وجل له وهيأه لها بقصد أن يتسنمها. ومن هذا النوع كفار مكة، وفيهم أبي بن خلف الذي كان له مع الرسول ﷺ مراجعات.

فهذا النوع من الناس ينبهه القرآن الكريم إلى إنسانيته والصفات التي خصه الله تعالى بها، وفي مقدمتها نعمة العقل، التي ما أوجدت فيه إلا بقصد أن يستعملها استعمالاً صحيحاً. فعلى الإنسان أن يتذكر مم خلق. حتى أصبح خصيماً مبيناً معرضاً عن الحق مقبلاً على الباطل والعياذ بالله. قال تعالى: ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾.

والآية الكريمة كما أشرنا تتحدث عن ذلك الصنف من الناس من زاوية إنسانيتهم ولا تتعرض لأيّ صفة أخرى سيئة موجودة فعلاً في ذلك الصنف من الناس. كل ذلك بقصد استدراجهم إلى الخير والرغبة عن استثارة غريزة العناد والكبر فيهم.

إنَّ الآية الكريمة توقظ في لطف، الإنسانية الغافلة النائمة في ذلك الإنسان الكافر المعاند. إنَّك أيها الإنسان شديد الخصومة الآن للحق، مفصح في خصامك وجدلك. فهلا عدت بذاكرتك إلى الوراء، مستعرضاً مراحل حياتك التي مررت بها كي تنتهي إلى أن الله عز وجل هو خالقك من العدم ومربيك، حتى وجدت نفسك الآن في هذه الحال التي تنعم فيها بالصحة والقدرة على البيان. هلا تحولت إلى الإيمان بالله عز وجل وتصديق رسوله الكريم وعبادته تعالى وحده لا شريك له وقمت بما هو واجب عليك من الشكر لله تعالى على ما مَنَّ به عليك من نعم لا تكاد تحصى ومنها القدرة على البيان، فجاهدت حق الجهاد بهذه القدرة على البيان وسواها في الدعوة إلى الله تعالى والدفاع عن دينه الذي ارتضى لعباده بدلاً من أن تقف حجر عثرة في طريق الآخرين إلى الخير، وقد دفعت الخير عن نفسك؟

أو ليس الأولى بك وبأمثالك أن تتدبر أمثال هذه الآيات في سورة المؤمنون [1] التي تتحدث عن المراحل التي مر بها الإنسان، قال تعالى: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنَّكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾.

وجاء في سورة النحل [2]، المكية كذلك، قوله تعالى ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، إن الله عليم قدير** ﴾ وجاء في سورة يس[3] ذاتها ما يحمل هذا الإنسان على أن يتفكر في المستقبل من حياته، قال تعالى: ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾.

وما الذي حدث من أبي هذا؟ قال تعالى: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم**﴾.

فهذا الرجل الكافر المعاند، جاء بالعظم الذي بلي ففتته في وجهه ﷺ الكريم وقال: من يحيي هذا يا محمد؟ فقال: الله يحييه ويميتك ويحييك ويدخلك جهنم، ثم نزلت هذه الآية [4]: وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يقتل أبي بن خلف هذا بحربة من يد رسول الله ﷺ يوم أحد فخرجت من عنقه عليه لعنة الله [5]

«والرميم: اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات [6]».

فهذا الرجل الذي أعمى الله عز وجل بصيرته نظر بعينيه إلى ما يؤول

---

(١) الآيات، ١٢ ـ ١٦.
(٢) آية، ٧٠.
(٣) آية ٦٨.
(٤) البحر المحيط، ٣٤٨/٧.
(٥) البحر المحيط، ٣٤٨/٧.
(٦) الكشاف، ٢٩٥/٣.

إليه عظم الإنسان بعد الموت، وغفل عن أن ينظر بعين بصيرته إلى الأصل الذي وجد منه عظم الإنسان، وغفل بالتالي عن الوصول إلى النتيجة الحتمية وهي أن الله عز وجل الذي خلق الإنسان ولم يك من قبل شيئاً قادر على إعادة خلقه، ونقول بلغتنا نحن البشر إن إعادة عمل الشيء أهون من عمله أساساً، ولكن العملية بالنسبة لله عز وجل القادر على كل شيء سواء.

وتأمل هذا التنبيه اللطيف الكريم في الآية الكريمة ﴿ ونسي خلقه ﴾ إن الجواب على هذا المثل الذي ضربه هذا الرجل متمثل في وجوده ذاته حياً خصيماً مبيناً بعد أن لم يكن شيئاً. ومع ذلك هو لعمى بصيرته وانتكاس فكره، يفكر في إعادة الحياة إلى عظامه بعد أن يموت ويبلى. وينسى أنه هو ذاته أولى بأن يتأمل ويتدبر، وأن يفكر فيمن أوجده أساساً من العدم. ما أقرب الشبه بين هذا الإنسان الذي عميت بصيرته وذلك الذي يبحث في إلحاح وعناد عن مكان نظارته بينما هي راكبة فوق أنفه وتنظر خلالها عيناه!

ومن أُبَيٍّ هذا ومن غير أبي حتى إنَّه يستحق أن يشار على جهة الخصوص إلى موقفه المعين من حقيقة البعث فالحشر فالحساب. إنَّه ليس شيئاً على الإطلاق. ولكنه عز وجل، البر الرحيم ـ ولا زلنا مع صفة الرحمة التي أشار إليها هي وصفة العزة القسم الأول من السورة ـ ولكنه الفضل منه تعالى كي يخرج عباده من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن حيرة الضلال إلى راحة الاهتداء. وحيث إن الموقف الذي يقفه أبي هذا من حقيقة البعث، يشاركه فيه غيره، وهم جميعاً بحاجة إلى أن ينبهوا إلى الزاوية الصحيحة التي ينبغي لهم أن ينظروا خلالها، لذلك عرضت الآية الكريمة، في طريقة كريمة، لموقف هذا الإنسان الذي يعتبر رمزاً لسواه، ونبهته في طريقة كريمة، إلى أن إرادة الله عز وجل قد شاءت لهذا الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم أن ينسى، قال تعالى بشأن أبينا آدم عليه السلام [1] ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له

(١) سورة طه: ١١٥.

عزماً ﴾. وفي الوقت ذاته هو قابل لأن يتذكر ويعود إلى الطريق الصحيح إذا أحسن الانتفاع من المواهب التي خصه الله تعالى بها. فبعد أن نظر إلى العظم من حيث نهايته حتى يغدو رميماً، عليه أن ينظر إلى العظم من حيث بدايته حيث لم يكن من قبل شيئاً.

إن لدى هذا الإنسان طاقة فكرية طيبة، ولكنه سبق أن أساء استعمالها، وها هو ذا ينبه الآن إلى الطريقة الحسنة لاستعمالها.

وإذا كانت كل هذه المعاني البعيدة قد أوحت بها هذه اللفتة الكريمة في الآية: ﴿ونسي خلقه﴾ فإن الآية التالية تعتبر موضحة لها ومبينة، قال تعالى: ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾.

ولعلنا لاحظنا أن الذي يسيطر على القسم الأخير في سورة يس، هو معنى الخلق، وأن الله عز وجل هو الذي خلق من العدم كل شيء.

وإن صيغة المبالغة «عليم» تتمشى مع ما تقرره الآية من شمول علم الله تعالى لكل المخلوقات التي أوجدها من العدم إضافة إلى الإنسان.

ويلاحظ على هؤلاء المنكرين للبعث أنهم يركزون حديثهم على العظام لأنها أطول أجزاء الجسم بقاء بعد الموت، وبعد ذلك يعتريها الفساد والبلى.

وإنَّ شد انتباه المنكرين للبعث عن النظر إلى ما تؤول إليه العظام إلى شيء مخالف تماماً هو ابتداؤها أساساً، خير مهيء للانتقال إلى شيئين مختلفين في الطبيعة أساساً. ومن هذا الاختلاف يحدث انسجامهما والنفع منهما، بقدرة القادر على كل شيء. ويتمثل ذلك النفع في صورة النار، وطريق الوصول إليها هو العودان الأخضران اللذان يقطر منهما الماء! والوصول إلى هذه النتيجة من هذا الطريق العجيب، شيء معروف لكل العرب ومألوف، وفي مقدمتهم

القرشيون الذين بعث فيهم النبي الأمي . «**والأعراب توري النار من الشجر الأخضر وأكثرها من المرخ والعفار. يقطع الرجل منهما غصنين من السواكين وهما أخضران يقطر منهما الماء، فبسحق المرخ وهو ذكر والعفار وهي أنثى ينقدح النار بإذن الله عز وجل**»[1] .

إن هذه عملية عادية وبسيطة، ولتكرار القيام بها أصبحت مألوفة وظنها الناس أمراً عادياً. ولكن إنعام النظر فيها يحمل الإنسان المنصف على الإيمان المطلق بقدرة الله عز وجل على إحياء العظام وهي رميم.

ليس هناك من يجهل القيمة الحقيقية للنار وكونها ضرورية في هذه الحياة وتشاء إرادة الله عز وجل أن تجعل الحصول على هذا الجوهر الضروري سهلاً ميسوراً تماماً كما شاءت إرادته أن تجعل الحصول على العناصر الأخرى الضرورية للحياة سهلاً ميسوراً. وأعني بالدرجة الأولى الماء والطعام، بل إنه عز وجل تكفل لكل دابة في أرض برزقها. قال تعالى[2] ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين** ﴾.

ويبدو فضل الله تعالى على العباد، بتسخير النار للمسافرين منهم. قال تعالى[3]: ﴿ **أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين** ﴾.

والنقطة المهمّة التي نود التنبيه إليها هي أن هذه العجيبة، عجيبة النار، التي عرفها الناس جميعاً وفيهم الكافرون المنكرون للبعث، هي في حقيقة الأمر، وسيلة كي يستدل الناس بما يعرفون من الواقع المشاهد على ما ينبغي أن يعرفوا من الأمور الغيبية. وهذا وذاك من مظاهر قدرة الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط، ٣٤٨/٧.

(٢) سورة هود، ٦.

(٣) سورة الواقعة، ٧١ - ٧٣.

والنقطة الأخرى المهمّة التي نود التنبيه إليها كذلك هي أن هذه ليست المرة الأولى في هذه السورة التي يستعان فيها بما يعرف من قدرة الله تعالى بالتجربة على الذي لما يعرف بعد، بل هذه هي المرة الثانية، أما المرة الأولى فهي التي تم فيها لفت انتباه منكري البعث إلى قدرة الله تعالى المتجلية في عودة كل من نسأله في أجله ضعيفاً كما كان في صغره. وهذا اللفت للانتباه إلى شيء معروف جاء على أثر التعبير عن ثلاثة من مظاهر قدرته عز وجل لا يستطيع منكرو البعث تصورها.

وحيث إنَّ معنى خلق الله تعالى للموجودات هو المسيطر على جو الآيات الأخيرة في السورة، فقد تمت الإشارة أولاً إلى خلق الله تعالى للأنعام. تلا ذلك الانتقال إلى خلق الله تعالى للإنسان. فالخلق مرة ثانية بقصد البعث والحساب. وحيث إنَّ الرد على منكري البعث منطقي ومقبول، وحيث إنَّ الاستدلال على معنى الخلق الثاني بعجيبة رائعة غاية في القيام بالدور المناسب، وهي عجيبة إخراج النار من الشجر الأخضر بأمر الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وحيث إنَّ هذه القدرة الإلهية التي خلقت الإنسان في أحسن تقويم قد خلقت شيئاً آخر أكبر من خلق الإنسان بنص القرآن الكريم، قال تعالى [1]: ﴿ **لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾. لذا تم الانتقال في هذه السورة المباركة من خلق الإنسان إلى هذا الخلق الأكبر الذي كثيراً ما نبه إلى ضرورة تأمله وتدبره والتفكر في خالقه الواحد الأحد الفرد الصمد خالق الإنسان وموجده من العدم، قال تعالى: ﴿ **أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم** ﴾.

ويلاحظ أن الحديث هنا عن السموات والأرض يسير في اتجاه الحديث السابق عن خلق الإنسان، ألا وهو إعادة الخلق مرة ثانية يوم القيامة، ويلاحظ

(١) سورة غافر، ٥٧.

أيضاً أن معنى خلق الله تعالى للموجودات في الآيات المتأخرة من السورة يخضع لظاهرة التدرج حيث الأكبر. وهذا الاتجاه في التدرج هو الذي يحقق المصلحة المتوخاة، إذ هو القادر في هذه المناسبة على حمل الكافرين على الإنصاف في النظر والتدبر والعودة إلى الطريق الصحيح. فإن لم يؤت ذلك كله أكله، فهذا دليل قوي على أن قلوب القوم في صدورهم قد عميت والعياذ بالله.

وفي الإمكان القول إن الآية الكريمة التي تتحدث عن إعادة الله تعالى خلق السموات والأرض شاملة لكل الإشارات السابقة إلى حقيقة الخلق هذه. فهي تتحدث عن السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن. فليست الإشارة إلى السموات والأرض من حيث كونها جمادات، بل الإشارة تشمل كذلك الملائكة والثقلين، الإنس والجن، بدليل أن الآية تستعمل ضمير العقلاء ﴿ **بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾.

فكأننا بصدد ثلاث حلقات بشأن خلق الله تعالى للموجودات: الصغيرة تتحدث عن خلق الله تعالى للأنعام، والكبيرة تتحدث عن خلق الله تعالى للإنسان، وإعادة خلقه بعد الموت، والأكبر تتحدث عن خلق الله تعالى للسموات والأرض ومن فيهن وإعادة الخلق يوم القيامة.

وإن صيغتي المبالغة في الآية الكريمة ﴿ **الخلاق العليم** ﴾ تسايران الحلقة الأكبر، ويلاحظ أن لفظ عليم جاء في هذا القسم للمرة الثانية، والخلاق: الكثير الخلق، والعليم: الكثير المعلومات [1].

والآية التالية تبيين وتوضيح للجواب على السؤال في الآية السابقة. قال تعالى: ﴿ **إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾. فأجلّ المخلوقات في تقديرنا نحن البشر العاجزين وأهونها رهن لقول الفعال لما يريد، كن فيكون.

---

(١) الكشاف، ٢/٥٩٥.

وكي نتبين عجز المخلوقات التام وقلة حيلتهم وهوانهم ، لنتأمل هذه الآية الكريمة [1] ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب** ﴾. ما أضعف الذباب، وأضعف الإنسان الذي لو سلبه الذباب شيئاً ودائماً يسلبه، فإنه عاجز عن أن ينتصف منه لنفسه [2].

أو ليس الفعال لما يريد، القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، خليقاً أن ينزَّه عن كل ما لا يليق بعظمته جل وعلا؟ الجواب على ذلك نجده في الآية الأخيرة في السورة، قال تعالى: ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾.

«ولفظة ملكوت» بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة، علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود، والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك ﴾ [3].

وحيث إن آخر ما أشارت إليه الآية الكريمة في نهاية السورة رجوع الخلائق إلى الله عز وجل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فإنا نستطيع أن نقول إنَّ هذه السورة المكية الكريمة، كسائر المكي من القرآن، تعالج القضية الأساسية قضية العقيدة، وتلح إلحاحاً بعيد المدى على حقيقة البعث بعد الموت فالحساب، فعلى كل إنسان أن يغنم من دنياه لآخرته، ومن حياته لموته، فعليه أن يسير على الطريق المستقيم الذي يسير عليه المصطفى ﷺ بإيحاء من ربه الذي أنزل عليه القرآن الحكيم في أسمى طرق الوحي.

---

(١) سورة الحج، ٧٣.

(٢) قصة عبد الله بن سوار قاضي البصرة مع الذباب مشهورة أشار إليها الجاحظ في كتاب الحيوان ٣/٣٤٣ تحقيق عبد السلام هارون.

(٣) في ظلال القرآن ٢٣/٤٠.

تذييل

«تذييل»

بعون الله وتوفيقه انتهينا من دراستنا المتأملة لسورة يس، وقد سارت الدراسة مع تسلسل الآيات محاولة الوقوف عند الآيات التي تكون مجموعة متماسكة متينة الروابط، الواضحة والخفية، التي تربط الحبات من ألفاظ عقد هذه السورة الكريمة ومعانيها.

وتبين من الدراسة المتأملة لهذه السورة المباركة، أنها تعرض في شيء من الإلحاح لبعض الحقائق المعينة بقصد لفت انتباه الذين يعنيهم الأمر وتنبيههم إلى أهميتها وخطورتها وضرورة الإنصاف في النظر والعدل في التدبر لكي يحصلوا على أحسن النتائج أخيراً.

هذه السورة مكية في مجموعها، كسائر المكي من القرآن، تهدف إلى إرساء أسس العقيدة. ومن هنا كان الحديث يدور حول القضايا الأولية الجوهرية. ومن هنا كان التعرض في شيء من الإلحاح لبعض القضايا المعينة.

ومن أهم القضايا التي ألحت السورة المباركة عليها حقيقة البعث بعد الموت، لأن الموجّه إليهم الحديث بالدرجة الأولى فيها هم كفار مكة المنكرون للبعث المكذبون للرسول النبي الأمي ﷺ.

ولعلنا لا نغالي في قليل أو كثير حينما نقول إن حقيقة البعث هي المحور

الذي تدور حوله هذه السورة الكريمة، ومن هنا كانت العودة الدائمة، المباشرة وغير المباشرة لهذه الحقيقة في السورة.

وباستعراضنا للسورة يتبين لنا المواضع الكثيرة التي دار فيها الحديث عن البعث فالقسم الأول من الآيات يتوج بالحديث عن البعث والنشور والحساب، قال تعالى: ﴿ **إنَّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في أمام مبين** ﴾.

وهذا حبيب النجار وهو ينصح قومه، يتضمن حديثه الإشارة إلى حقيقة البعث، قال تعالى على لسانه، ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون** ﴾ وقال تعالى عن حبيب هذا: ﴿ **قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾.

بل إن القسم الثالث من الآيات التي تتحدث عن المكيين المكذبين وتضرب لهم الأمثلة الثلاثة على قدرة الله تعالى، لقضية البعث فيه شأن كبير. فمع هاتين الآيتين الكريمتين أولاً: قال تعالى: ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون. وإن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾ والآية الثالثة في القسم تتحدث عن آية المكان الدالة على قدرته تعالى من الزاوية المعمقة للمحور الذي تدور عليه السورة، محور البعث، فهي تنظر إلى المكان أو الأرض من زاوية إحياء الله تعالى لها بعد أن كانت ميتاً، غير صالحة لأن يسكنها الإنسان، قال تعالى: ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون** ﴾.

والنظرة إلى الأرض من هذه الزاوية جعلت الحديث عنها يتقدم الحديث عن الآيتين الأخريين. آية الزمان وحمل الناس فوق الماء. وللارتباط القوي بين المكان والزمان تقدم الحديث عن الزمان على الحديث عن آية حمل الناس فوق الماء.

فإذا تحولنا إلى القسم الرابع تبين أن لقضية البعث حظاً موفوراً، فالآيات من الحادية والخمسين إلى التاسعة والخمسين، ومن الثالثة والستين إلى السادسة والستين، مرتبطة كلها بقضية البعث.

أما القسم الخامس فلهذه القضية حظها فيه كذلك. قال تعالى عن الكفار والآلهة التي يعبدون من دونه عز وجل: ﴿ **لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون** ﴾.

فإذا انتقلنا إلى القسم الأخير في السورة، تبين أن قضية البعث هي المسيطرة على أجواء هذا القسم كله، من الآية السابعة والسبعين، حتى نهاية السورة.

من كل ما سبق يتضح أن قضية البعث بعد الموت إحدى القضايا المهمّة التي أولتها السورة الكريمة عناية تامة، بل هي المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة.

وحيث إن مفهوم البعث ببساطة، هو إعادة الحياة مرة أخرى إلى المخلوقات، لذلك ارتبط بهذه الحقيقة حقيقة أخرى هي خلق الله عز وجل للموجودات. ومن هنا دارت في هذه السورة بوضوح تام مشتقات لغوية تعود إلى مادة الخلق هذه. إمَّا بقصد التنبيه إلى خلق الله تعالى للموجودات ابتداء، أو بقصد التنبيه إلى إعادة الحياة لهذه الموجودات.

وهذه هي المواضع في السورة التي جاءت فيها الإشارة إلى هذه القضية الأخرى الحيوية. قال تعالى: ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾ وجاءت الإشارة بعد ذلك إلى خلق الله تعالى للأنعام، قال تعالى: ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما**

عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ وفي القسم الأخير من السورة تنوعت الإشارات إلى هذه الحقيقة، قال تعالى: **﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم ﴾.**

والحقيقة أن أجواء هذه السورة عاصفة في مجموعها، لأنها في الدرجة الأولى من المكي من القرآن الذي يعالج القضية الأساسية الأولى قضية العقيدة، ويوجه الحديث في مجموعه إلى الكافرين المنكرين للبعث.

ومن القضايا التي عرضت لها السورة، والتي اصطبغت بصبغة الذين بتوجه الحديث إليهم بالدرجة الأولى، قضية الصيحة الواحدة التي خمد بسببها قوم حبيب، والصيحة الأخرى التي ينتظرها الخلائق وفي مقدمتهم أولئك الذين تشبه مواقفهم موقف المكيين المكذبين للرسول النبي الأمي ﷺ، إيذاناً بنهاية الحياة الدنيا، والصيحة الأخيرة المؤذنة بالبعث للحساب، وللمكذبين نصيبهم الموفور من الصيحة.

ويلاحظ في هذه السورة المباركة أن الإشارات إلى المؤمنين المتقين قليلة ـ ولكنها شافية ـ بالقياس إلى الحديث عن الكافرين المجرمين، ومن هنا كان في أسلوبها الشدة والعنف الذي أسعفه رهبة المعاني وهيبة الأفكار.

وإنَّ إعراض الكافرين يستأثر بشيء كبير جداً من التوضيح، وتقليب المعنى في إلحاح على كل وجوهه الممكنة، وذلك من أهم مظاهر الشدة والعنف في السورة، جاء بشأن إعراض كفار مكة عن الحق قوله تعالى: **﴿ لقد حق**

القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون، إنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾.

وفيما يتصل بالمثل الذي ضرب في السورة، فالجو فيه الرهبة والهيبة، وفكرتا الموت والبعث مهيمنتان على المشاهد. وكل شيء يقول إن الآخرة خير من الأولى.

وإن الإشارات المتوالية إلى مظاهر قدرته عز وجل، خادمة للغرض الذي تحرص السورة المباركة على توضيحه، وهو أن الآخرة خير من الأولى.

وبما أن هذه السورة تهدف إلى التزهيد في الدنيا والتحبيب في الآخرة وفي الجنة، لذلك كان لها منزلة كبيرة في القرآن الكريم. جاء في كتاب أبي داود عن معقل بن يسار قال: قال النبي ﷺ: اقرأوا يس على موتاكم: وروي أنَّ النبي ﷺ قال: ما مِنْ ميّتٍ يُقْرأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه. وعن مسند الدّارميّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفِر له من تلك الليلة. وروى التّرمذيّ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً وقلب القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرَّات. قال: هذا حديثٌ غريب، وعن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ قال: إنَّ فى القرآن لسورة تشفع لقارئها ويُغْفَر لمستمعها ألا وهي سورة يس [1].

ولو حاولنا تعمق الأسباب التي جعلت لهذه السورة المباركة كل هذه الفضائل بالنسبة للقارئين لها والمستمعين، الأحياء والأموات على حد سواء، فإنه يتبين أنها تدور حول الآخرة. هي تزهد في الدنيا، وتحبب في الجنة، وتنفر

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٥٤٤٥.

من النار. هي تدعو إلى عبادة الله تعالى وتنهى عن طاعة الشيطان عليه لعنة الله. تبين في صراحة بالغة بأن الحياة الدنيا ليست سوى طريق مؤدية إلى الآخرة، وأن كل ما يقوم به الإنسان في حياته من أعمال وما يترك بعد موته من آثار، مكتوب في صحيفة أعماله. وبعد الموت يكون البعث فالحساب ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ فعلى الإنسان أن يسير في الصراط المستقيم، الذي دعا إليه رسول الله ﷺ. وبهذا تكون العلاقة متينة بينه وبين خالقه. حتى إذا كانت اللحظة الحاسمة التي يوشك أن يغادر فيها الإنسان هذه الحياة الدنيا، وقرأ وهو في سكرات الموت هذه السورة المباركة أو قرئت عليه، أحس في أعماقه أنه مقبل على دار البقاء، دار الآخرة التي هي خير له من الأولى. أحس في أعماقه بالطمأنينة والسعادة للأعمال الطيبة التي قدمها ابتغاء وجه ربه الأعلى، لأنه سيثاب عليها أحسن ثواب، ونزلت أمثال هذه الإشارات في السورة برداً وسلاماً على قلبه، قال تعالى: ﴿ **إنَّ أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولاً من رب رحيم** ﴾.

ولا تشعر النفس المؤمنة مطلقاً بشيء من التهيب أو الخوف، بل على العكس من ذلك هي تشعر بكل اطمئنان وراحة بال، قال تعالى في سورة الفجر[1]: ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾.

وفي الإمكان أن نقول بشأن هذه السورة المباركة، إنَّ القارىء لها أو المصغي إليها يحسان إحساساً عميقاً كما لو أنهما في جولة لذيذة بحديقة غناء

(١) الآيات ، ٢٧ ـ ٣٠.

متناسبة المسافات، متناسقة الألوان متقاربتها، ينسجم كل ذلك مع اللون الرئيسي في السورة أو الظلال التي تطبعها في الجملة بطابعها.

إنَّ الألوان في السورة والظلال رئيسية وحيوية. لأنها كما عرفنا مكية، وتتناول القضايا الحيوية الرئيسية، الحياة والموت وما ينبغي أن يراعى في هذه الحياة وما ينبغي أن يحسب له كل حساب بعد الموت. هناك صراط مستقيم يسير فيه رسول الله ﷺ بهدى القرآن الكريم الموحى إليه به من عند الله تعالى في أسمى طرق الوحي. فعلى الناس أن يتبعوا الرسول النبي الأمي ويهجروا كل طريق آخر، وبذلك ينضمون إلى الفئة المؤمنة الناجية ويتركون كل فئة أخرى.

وقد ضربت السورة الكريمة المثل بالقرية التي أرسل الله تعالى إليها ثلاثة من رسله، كما ذكرت العديد من الآيات الدالة على قدرته عز وجلَّ، والكفيلة بحمل الذين ينتفعون بعقولهم على الإنصاف في النظر والعودة إلى طريق الفلاح، والسير في الصراط المستقيم حتى ترجع نفوسهم المؤمنة المطمئنة إلى بارئها.

ولعله اتضح بما سبق شيء من الأسباب التي جعلت لهذه السورة المباركة، سورة يس، الفضائل المتعلقة بها بشأن قارئها أو المستمع لها، من الأحياء والأموات على حد سواء.

«خاتمة»

في دراستنا المتأملة، في الصفحات السابقة لسورة يس، وبعد استعراضنا السريع لأقسام السورة الستة، وقضاياها الست، انتقلنا إلى القسم الأول من السورة الذي يتكون من اثنتي عشرة آية. وقد تبين أنه يعرض لخمس من قضايا السورة. وهذه القضايا الخمس هي الرسول الكريم، والقرآن الحكيم. والفئة القليلة أول الأمر من أتباعه عليه الصلاة والسلام، والفئة الكثيرة أول الأمر من المكذبين له عليه الصلاة والسلام المنكرين للبعث، وأخيراً قضية البعث بعد الموت.

وقد لفت انتباهنا في هذا القسم ظاهرتان اسلوبيتان على جانب كبير من الأهمية الأولى ظاهرة العودة الدائمة. وفق نظام بديع في التعبير، إلى القضية السابقة، وهذه الظاهرة تبدو في الآيات المتقدمة من هذا القسم. ولهذه الظاهرة فضلها في تحديد المعنى المراد من مطلع السورة «يس» وأنه من أسمائه ﷺ. وبهذا يتسنى لضمير المخاطب في الآية الثالثة ﴿**إنَّك لمن المرسلين**﴾ أن يعود إلى ظاهر. تماماً كما عاد الضمير نفسه إلى ظاهر في قوله تعالى في سورة طه ﴿**طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾. والثانية هي ظاهرة البناء الهرمي للمعاني من ناحية ولكل معنىً من ناحية أخرى. وقد تبين ذلك بوضوح تام في الآيات الثلاث التي تصور إعراض كفار مكة عن الدعوة إلى الله تعالى حتى حق القول عليهم بدخول جهنم. لقد رسمت الآيات صورة هؤلاء الذين رفضوا أن

يحركوا رؤوسهم حيث الخير والفلاح كبراً منهم وتيهاً حسب اعتقادهم فشمخوا برؤوسهم وأغمضوا أعينهم. وهذا الموقف منهم في الحقيقة هو موقف الذليل الذي وضع الغل في عنقه. ولشدّ الغل اليد إلى العنق رفع رأس الذليل وأغمضت عيناه وفقد القدرة على تحريك رأسه. وهذا هو معنى القول «مقمحون» في الآية كما رسمت صورة هؤلاء وقد عطلوا عمل حاسة البصر فلا تستطيع أن ترى النور الذي اتخذ رمزاً لنور الهداية والحق الذي جاء به المصطفى ﷺ. وعطلوا بعد ذلك عمل الحاسة الأخرى التي تعمل في الظلام بل تنشط وهي حاسة السمع. فلم يصلهم صوت الحق الذي دعاهم به إلى الخير المصطفى ﷺ.

ولهذا القسم أخيراً حظه من قضية البعث، حيث تخصصت الآية الأخيرة في الحديث عن هذه القضية الهامة.

ثم انتقلنا إلى القسم الثاني في السورة الذي يضرب المثل بالقرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى، وأمكن القول: إن هذا القسم يهدف من ناحية إلى تحذير كفار مكة أن تكون عاقبتهم كعاقبة كفار القرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى. فعليهم أن يصححوا أخطاءهم. كما يهدف من ناحية أخرى إلى تسلية المصطفى ﷺ والفئة القليلة المؤمنة التي كانت تلاقي في مكة صنوف العذاب.

فالملاحظ أن هناك تماثلاً بين أوضاع القريتين، مكة وقرية حبيب. كذب كفار مكة الرسول ﷺ وكذلك فعل كفار القرية، على الرغم من إيمان الفريقين بوجود الله تعالى ولكنهم كانوا يخطئون المعرفة الصحيحة ويشركون معه عز وجل آلهة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان. وقد بين الرسل أنما عليهم البلاغ، وفي ذلك تسلية له عليه السلام. وقد فهمنا أن هناك جوهراً واحداً للدعوة في كل زمان، وكيف لا يكون ذلك كذلك، ومصدر كل دعوة واحد. وقام حبيب النجار بالدور الذي قامت به الفئة المؤمنة في مكة، فقد اقتضت حكمة الله

تعالى أن يكون طريق كل دعوة إلى الخير مليئاً بالأشواك وليس بالورود، وأن يكون هناك دائماً من يبذل روحه رخيصة في سبيل الله تعالى، ويوم القيامة يكون من نصيب هؤلاء المجاهدين الجزاء الأوفى.

وهذا المثل الذي ضرب بشأن القرية الظالمة التي أهلكها الله تعالى بصيحة واحدة لواحد من جنده، أفصح عن حكمة الله تعالى التي شاءت قبل البعثة المحمدية بأن تتدخل القدرة الإلهية لإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين الذين قامت عليهم الحجة البالغة.

وفي هذا القسم تبدو بصورة أوضح من غيره ظاهرتان أسلوبيتان، هما أسلوب القصر وأسلوب الاستفهام، الأول أدل على الإحاطة والشمول، والثاني أكثر قدرة على حمل الموجه إليهم الحديث على التجاوب والمشاركة الوجدانية.

ثم انتقلنا إلى القسم الثالث الذي يبدأ بالحديث عن حقيقتي الموت والبعث، ولكن في لهجة حادة يستحقها كفار مكة الغافلون. ويتحول السياق للحديث عن ثلاث من آيات الله تعالى الدالة على قدرته عز وجلَّ المطلقة. وهذه الآيات هي المكان والزمان وحمل الناس فوق الماء. وحيث إنَّ إحساس الإنسان بقيمة المكان وحاجته إليه يسبق إحساسه بالزمان، لذا كان الحديث ابتداء عن هذه الآية، ولكن من الزاوية التي تخدم القضية المهمّة التي تسيطر على أجواء سورة يس، والمحور الذي تدور حوله السورة، زاوية قضية البعث. فكان الحديث من زاوية إحياء الله تعالى للأرض التي كانت ميتاً فأنبتت من كل زوج بهيج وقد تبين أن الآية القرآنية الأولى تتحدث عن النوع من الطعام الذي هو أقرب لأن يكون ضرورياً. وأن الآيتين التاليتين تتحدثان عما هو أقرب لأن يكون تفكهاً للنفس وبهجة للعين. والآية الأخيرة تنزهه عز وجل عما لا يليق بجلاله وعظمته. وفيها إشارات إلى مخلوقات الله تعالى مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. وقد تقدم الحديث عما تنبت الأرض لأننا بصدد آية

المكان، وتقدم الحديث عن الأنفس لأنها أقرب إلى المعلوم من غير المعلوم الذي تأخرت الإشارة إليه في الآية الكريمة.

وتلا ذلك الحديث عن آية الزمان الذي يرتبط بالمكان والذي يشعر الإنسان بوجوده وقيمته بعد المكان. وكان الحديث منصباً على دلائل الزمان الكبرى، الليل والنهار، والشمس والقمر، حيث فهمنا من السياق أن الظلام هو الأساس. وأن النور طارىء عليه، وكان الحديث عن الشّمس والقمر من حيث كونهما آيتين دالتين على قدرة الله تعالى، فعلى الناس أن يأخذوا العظة والعبرة من النظام المحكم البديع الذي يسير فيه الليل والنهار والشمس والقمر. فلا ينبغي للشمس أن تدرك القمر مع اجتماعتها وحركتهما. ولا ينبغي لليل أن يسبق النهار مع حركتهما وتلاصقهما. فلكل خط سير لا يخرج عنه مطلقاً.

وإنَّ الزاوية التي نظرت منها الآية إلى القمر من حيث كونه آية ينتفع الناس منها ما دام القمر سائراً في فلكه دون التعرض من قريب أو بعيد لاضطراب خط سيره أو ذهاب نوره، لها دور في تحديد المعنى المراد بقول تعالى: ﴿لمستقر لها﴾ والمراد لخط سير محدد لها، مدة انتفاع الناس بها دون المساس بنهايتها. فلهذا مواضع أخرى. وختم الحديث عن آية الزمان بالقول «يسبحون» المهيء للانتقال إلى الآية الثالثة آية حمل الناس فوق الماء.

وقد تبين أن الحديث عن هذه الآية الثالثة جاء في أربع آيات، تماماً كما جاء الحديث في أربع آيات عن كل من آيتي المكان والزمان. وفي كل مجموعة الحديث الشامل الشافي، فهناك انسجام بين حظ النفس من المعاني وحظ الأذن من الألفاظ أو تلاؤم الأصوات. فسبحان القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وكأن الآية القرآنية الأولى حينما تستعمل لفظ «ذرية» تضرب على وتر الأبوة الحساس عند المكيين. فواجبهم أن يشكروا لله تعالى الذي أنقذ ذريتهم كما أنقذهم هم وآباءهم من هلاك محقق بالطوفان على عهد نوح عليه السلام. وقد جاء في هذه الآية ﴿ **وإن نشأ نغرقهم فلا**

صريخ لهم ولا هم ينقذون ﴾ أسلوب الشرط الذي يضفي على التعبير قوة. ولفظ رحمة في الآية التالية ينقلنا إلى قوله تعالى في القسم الأول عن القرآن ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ فهاتان الصفتان تصبغان السورة بلونيهما.

ثم انتقلنا إلى القسم الرابع. وعلى الرغم من كل هذا الإمهال من الله عز وجل والتنبيه. فإن كفار مكة يعرضون عن دعوة الخير لهم بأن يتقوا الله عز وجل، وعن إطعام المؤمنين فضلاً عن الإنفاق عليهم. ولا يقفون عند هذا الحد إنَّما يتجاوزونه إلى الشك في يوم القيامة. ويكون الجواب عليهم عنيفاً مصوراً أنواع الصعاب التي سيصادفون في الحياة الدنيا أو الآخرة، أو التي كان بالإمكان أن يصادفوا لولا رحمة الله تعالى العزيز الرحيم، ويوم القيامة يجازي كل بما فعل، ولا يستطيع واحد من الكافرين أن ينكر ما اقترف من سيئات لأن أعضاءه هي التي تنطق وتقوم بدور كل من المعترف والشاهد.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده وتكريمه لهم ذلك الحديث الموجَّه إليهم المؤنب للغافلين على طاعتهم للشيطان الرجيم وعصيانهم أوامر الله تعالى بأن يعبدوه وحده لا شريك له.

وفي هذا القسم ظاهرة أسلوبية لطيفة، هي أنه في سبيل حمل الموجه إليهم الحديث على تدبر آيات الله تعالى الدالة على قدرته فالعودة إلى الطريق الصحيح، وبما أن هؤلاء قصيرو النظر محدودو الإدراك لا يستطيعون تمثل مظاهر قدرة الله تعالى المتعلقة بما سيصادف هؤلاء أو بالإمكان أن يصادفوا لولا رحمة الله تعالى بهم، في الحياة الدنيا والآخرة فقد اقتضت حكمة الله تعالى من باب الرحمة بهؤلاء أن تكون الإشارة أخيراً إلى مظهر من مظاهر قدرته عز وجل يعرفه كل إنسان. كي يقيس هؤلاء ما عرفوا على ما لم يعرفوا بعد، فكانت هذه الآية القرآنية، ويلاحظ أنها في أسلوب الشرط، قال تعالى: ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾ وهذه هي الآيات المتقدمة، قال تعالى: ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. ولو**

نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾. وهذه الظاهرة الأسلوبية اللطيفة سنلاحظها للمرة الثانية والأخيرة في القسم الأخير من السورة، وذلك في قوله تعالى: **﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾**.

ومن مظاهر إعراض هؤلاء الكافرين الزعم بأن القرآن الكريم شعر، فنفت الآية عنه ذلك. وهنا نتبين شبهاً قوياً بالآيات المتقدمة في السورة. فالقضايا في كل من الموضعين واحدة.

ثم انتقلنا إلى القسم الخامس الذي يتكون من شقين. كل منهما في ثلاث آيات. والشق الأول يتحدث عن نعمة الله تعالى على الناس بخلق الأنعام من أجلهم كي ينتفعوا بها ويملكوها وآية الله تعالى هذه امتداد للآية الثالثة آية حمل الناس فوق الماء في القسم الثالث من السورة، للاشتراك بين الآيتين في حمل الناس والشق الثاني يشير إلى انصراف المكيين عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، خالق كل شيء، إلى عبادة الآلهة التي لا تخلق ذباباً ولو اجتمت له. وفي هذا الشق نهي للمصطفى ﷺ عن أن يحزن، ففيه تسلية له عليه الصلاة والسلام، وذلك امتداد للتسلية وتثبيت الفؤاد في مواطن متفرقة من السورة. وفي هذا الشق كذلك تعرض لقضية البعث الهامة.

ثم انتقلنا إلى القسم السادس الأخير من السورة الذي يحقق مع القسم السابق ظاهرة التدرج المعنوي أزاء حقيقة خلق الله تعالى للأنعام فهذا القسم يتحدث أولاً عن خلق الله تعالى للإنسان، وخلقه أكبر من خلق الأنعام، وثانياً عن خلق الله تعالى للسموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الإنسان.

ويتحدث هذا القسم عن إنسان بعينه منكر لحقيقة البعث ويعتبر رمزاً لسواه وخطأ هذا الإنسان أنه نظر إلى عظم الإنسان من حيث عودته رميماً، فاستكثر أن تعاد يوم القيامة الحياة إلى جسم هذا الإنسان الذي يعتبر العظم قوامه فصحح القرآن الكريم نظرة هذا الإنسان، إذ نقله من النظر إلى نهاية

الإنسان إلى بدايته فطلب منه أن ينظر إلى العظم من حيث وجوده من العدم. فإذا أيقن بأن الله عز وجل هو الذي أوجده أساساً، فإنه يسهل عليه بعد ذلك أن يوقن بأن إعادة الحياة إلى هذا العظم ذاته شيء هين على الله عز وجل خالق كل شيء من العدم.

وإن نقل نظر الإنسان من زاوية معينة إلى زاوية أخرى مقابلة ومخالفة، خير مهيء للانتقال إلى مظهر من مظاهر قدرته عز وجل معروف لكل إنسان.

وهذا المظهر يتجلى في النار التي ينتفع بها الناس ومع ذلك هي تتولد من شيء مخالف لها في الطبيعة أساساً. وهذا الشيء هو العودان الأخضران اللذان يقطر منهما الماء. ويلاحظ أن الانتقال في الأسلوب هنا من شيء لمّا يؤمن به الكافرون إلى شيء معروف لهم ومألوف كي يقيسوا ما عرفوا على الذي لما يعرفوا بعد، وسبق أن نبهنا إلى هذه اللّطيفة في التعبير بشأن قوله تعالى: ﴿ **ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾ ويتم كل ذلك بأمر الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له «كن فيكون».

وتختم السورة بتنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به، وتقرير حقيقة البعث، وهو المحور الذي تدور حوله السورة المباركة سورة يس، ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾.

وفي تذييل البحث حاولنا تبيين القضايا المهمّة التي صبغت السورة بألوانها، كما حاولنا تبيين الأسباب التي كان من أجلها لهذه السورة المباركة فضائل تعرف بها فقد قيل عنها إنها قلب القرآن الكريم. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس.

والحمد لله رب العالمين..

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
توطئة	٩
القسم الأول: المؤمنون بالقرآن الحكيم والرسول العظيم لهم أجر كريم (الآيات ١ ـ ١٢)	١٣
القسم الثاني: عذاب الكافرين في الأولى والآخرة أليم وثواب المؤمنين عظيم (الآيات ١٣ ـ ٣٠)	٢٩
القسم الثالث: آيات المكان والزمان والحمل فوق الماء (الآيات ٣١ ـ ٤٤)	٤٩
القسم الرابع: عذاب الكافرين وثواب المؤمنين (الآيات ٤٥ ـ ٧٠)	٦٩
القسم الخامس: لا ينتفع الكافرون من آية خلق الأنعام (الآيات ٧١ ـ ٧٦)	٩٥
القسم السادس: الله تعالى قادر على إعادة خلق الإنسان والسماوات والأرض (الآيات ٧٧ ـ ٨٣)	١٠٣
تذييل	١١٧
الخاتمة	١٢٥